الفقه والاعتبار
في فاجعة السيل الجرار

ح مجموعة زاد للنشر ١٤٣١ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المنجد، محمد صالح

الفقه والاعتبار في فاجعة السيل الجرار. محمد صالح المنجد - جدة

١٤٣١هـ

٩٦ ص، ١٤×٢١ سم

ردمك :٣-٢٩-٧-٨٠٤٧-٦٠٣-٩٧٨

١- الوعظ والإرشاد أ.العنوان

ديوي : ٢١٣ ١٤٣١/١٠٢١

الطبعة الأولى

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م



محمد صالح المنجد

الفقه والاعتبار في فاجعة السيل الجرار



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن من ابتلاء الله تعالى لخلقه ما حدث من سيول عارمة في مدينة جدة نتج عنها غرق وهلع، ونقص في الأموال والأنفس والثمرات.

فسبحان الله الواحد القهار، أتى أمره فداهم السيل الناس، وفي سويعات تحول جنوب وشرق المدينة التي تشكو شح الأمطار، وقلة المياه، إلى طوفان جارف، ووحش غاضب، يجتاح كل معترض، ويبتلع في جوفه ما يأتي عليه، وتتراقص على مجاريه السيارات والمعدات والآلات كأنها لعب أطفال، وتتحول تلك القطرات اللطيفة بتجمعها بين عشية وضحاها إلى كارثة مؤلمة، ومأساة حقيقية، سيبقى التاريخ دهرا يذكرها، والأجيال تلو الأجيال تتناقلها.

إنها فاجعة أربعاء جدة الثامن من ذي الحجة لعام ألف وأربعمائة وثلاثين من الهجرة، والتي أصابت أكثر من ثلثي المدينة، وأنتجت أضرارا قدرت بالمليارات.

ولا تزال المخاوف مما يمكن أن تحمله الأيام القادمة من أمر السيول، وفيضان مياه الصرف الصحي، تقلق النفوس، وتقض المضاجع، نسأل الله السلامة والعافية.

إن مثل هذه الآيات الكونية العظيمة لابد أن يكون لنا معها وقفات تفكر واعتبار، فالمؤمن البصير يقف عند مواقع العبر، وأحكام القدر، ينظر ويتدبر.

ولذا فإن هذه الورقات تبين جزءا من حجم هذه الكارثة وأثرها، وما الواجب علينا تجاهها.

وما ذكرناه في هذا الكتاب من قصص مؤلمة هي من عمق الحدث، ومصدرها شهود عيان كما جاء في الصحف المحلية، ولكثرتها لم نُشر إلى مصدرها.

نسأل الله أن يغفر لموتى المسلمين، وأن يجبر مصاب المبتلين.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



كل شيء بقدر الله

فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وليس ثمة شيءٌ يحول دون نفوذ قدر الله في خلقه سبحانه وتعالى، وبذا يطمئن قلب المؤمن الموحِّد؛ لأن أمر الله سبق، ومشيئته نفذت.

قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ٥١].

وقال سبحانه: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد: ٢٢].

لله الحكمة البالغة

فتقديره سبحانه وتعالى مبني على حكمته وعدله، ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [يس:٣٨]، ولا يخرج شيء في الكون عن مقتضى هذه الحكمة.

ومن حكمته سبحانه أن جعل المصائب والكوارث سبباً للاتعاظ، والتذكر، والرجوع إليه ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٢].

كل شيء مسخر بأمره

فإذا قال الله تعالى للسماء أمطري أمطرت، وإذا أمر الماء اجتمع وسال، فالتقى الماء على أمر قد قدر، والضر والنفع بيده سبحانه، وما يجري من سيول وزلازل وبراكين وسائر جنوده، إنما هو بأمره وقدره لحكمة يريدها جل وعلا.

والناس ينظرون إلى الظاهر، فيصابون بالدهشة وهم يرون السيل العرمرم بدواماته الرهيبة، فربما غاب عنهم ما وراء ذلك من الحِكَم، وقديما قال أهل البادية: نعوذ بالله من شر الأعميين والأيهمين أي : (السيل والبعير الهائج)[1].

ووصفا بالعمى لأنهما لا يتقيان موضعاً، ولا يتجنبان شيئاً، كالأعمى الذي لا يدري أين يسير.

وسميا أَيْهَمَين لعدم القدرة على دفعهما، فلا هما ممن ينطق فيُكَلَّمُ، ولا ممن يعقل فيُسْتَعْتَبُ.

لكننا نقول: إن جريان السيول ليس لغير هدى، حيث كان بتقدير العزيز العليم .

---

(١) انظر: تاج العروس (٣٤/ ١٤٦).

حوادث السيول عبر التاريخ

المتتبع لتاريخ الأمطار على بلاد الحجاز يلحظ توافقا واضحا في السيول المخيفة والكارثية.

ويطلق أهل مكة على هذه السيول سيل الربوع (الأربعاء) وذلك لأنها حصلت عدة مرات وجميعها في يوم الأربعاء.

ففي سنة ٨٠٢ هـ

قال المقريزي رحمه الله: (وفي ليلة الخميس عاشره: كان بمكة – شرفها الله – سيل عظيم بعد مطر غزير، امتلأ منه المسجد الحرام حتى دخل الكعبة، وعلا على بابها نحو ذراع، وهدم عمودين من عمد المسجد، وسقطت عدة دور، ومات تحت الهدم – وفي السيل – نحو الستين إنساناً)[١].

وفي سنة ٨٣٧ هـ

قال ابن حجر رحمه الله: (وفيها وقع بمكة سيل عظيم طبق ما بين الجبلين، وانهدمت بمكة دور كثيرة، ووصل الماء إلى قرب باب الكعبة، وطاف بعض الناس سبحاً، وأقام الماء يوماً بالحرم إلى أن صرف، ... وبقي من الطين في المسجد نحو نصف ذراع، وتهدمت في تلك الليلة دور كثيرة، ومات تحت الردم جماعة... وعقب هذا السيل وباء)[٢].

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي (٣/ ١٣).
(٢) إنباء الغُمر بأبناء العمر (٨/ ٢٠٠-٢٠١).

والطواف بالبيت سباحة أثناء السيل معروف منذ القدم، فقد ذكر الفاكهي عن مجاهد قال : (كان كل شيء لا يطيقه الناس من العبادة يتكلفه ابن الزبير، فجاء سيل فطبق البيت، فامتنع الناس من الطواف، فوقع ابن الزبير رضي الله عنهما يطوف سباحة)[١].

وقال أبو بشر : (كان سعيد بن جبير يطوف بالبيت زمن الماء، والماء يأخذه إلى سرته، ومرة إلى ثَندوته)[٢].

قال السخاوي: (ومن المشهور بين الطائفين حديث: (من طاف أسبوعاً في المطر غفر له ما سلف من ذنوبه)، ويحرصون لذلك على الطواف في المطر، ولا أصل له في المرفوع، وهو فعل حسن حتى إن البدر بن جماعة طاف بالبيت سباحة، كلما حاذى الحجر غطس لتقبيله، وكذا اتفق لغيره، من المكيين وغيرهم)[٣].

وقد ذكر بعض المؤرخين أن الجحفة سُميت بذلك ؛ لأن السيل اجتحفها، وحمل أهلها في بعض الأعوام[٤].

---

(١) أخبار مكة (١ / ٤٩٨).
(٢) أخبار مكة للفاكهي(١ / ٤٩٧)، والثَّنْدُوَةُ للرجل بمنزلة الثَّدْي للمرأَة. لسان العرب (١ / ٤١).
(٣) المقاصد الحسنة (٦٥٥).
(٤) معجم البلدان (٢/ ١١١).

سيل الربوع عام ١٣٦٠هـ

بدأ نزول المطر في شهر ربيع الأول من الصباح حتى بعد العصر، فكان مطرا غزيراً قوياً، جاء السيل على إثره فدخل المسجد الحرام، ووصل إلى باب الكعبة، وتعذرت الصلاة فيه، والطواف بالكعبة؛ لأن المسجد الحرام امتلأ بالماء حتى صار البحر الزاخر، وامتلأ المسجد بالأتربة، كما امتلأت الشوارع بها أيضاً...وقد ذهب هذا السيل بأمتعة كثيرة مما كان في الدكاكين، وسوق الحراج، وخربت قبور المعلاة، وتهدمت المنازل القديمة[١] .

سيل الربوع عام١٣٨٤هـ

والسيل الثاني عام ١٣٨٤هـ وكان أيضا في يوم الأربعاء في ٥ شعبان حيث هطلت الأمطار من قبل العصر بساعة، واستمرت إلى الساعة العاشرة ليلاً ...فسال منه السيل، وكان السيل قويا[٢].

سيل الربوع عام ١٣٨٨هـ

والسيل الثالث يوم ٤/ ١١/ ١٣٨٨هـ وكان أيضا يوم أربعاء، وهو أشهر سيل حصل لمكة، حيث هطلت الأمطار من الساعة التاسعة تقريبا واستمرت لمدة تتراوح من ساعة إلى ثلاث ساعات، وكان المطر أول هطوله غزيرا جدا، ثم دخل السيل على إثر المطر إلى الحرم، ووصل إلى باب الكعبة، وجرف مركبات كثيرة، ومات فيه خلق كثير...وهذا السيل بالتحديد مازال أهل مكة يذكرونه إلى الآن.

(١) التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، لمحمد طاهر الكردي المكي (٢/ ٢٥٤).
(٢) المصدر السابق (٢/ ٢٥٥).

سيل الأربعاء على جدة في ١٤٣٠/١٢/٨هـ

أي بعد ٧٠ سنة من أول سيل كان يوافق يوم أربعاء ولم يتعرف إلى الآن على رقم نهائي للخسائر المادية والبشرية.

ومن قبل ذلك كله ما قصه الله علينا من حادثة: السيل العرم

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٥-١٧].

كانوا في غبطة عظيمة، وأرزاق دارة، وثمار وزروع كثيرة، وكان لهم واد عظيم، تأتيه سيول كثيرة، وكانوا قد بنوا سدا محكما، ليكون مجمعا للماء، فكانت السيول تأتيه، فيجتمع هناك ماء عظيم، فيفرقونه على بساتينهم، التي عن يمين ذلك الوادي وشماله.

ورزقهم الله من الثمار ما يكفيهم، ويحصل لهم به الغبطة والسرور، فأمرهم الله بشكر نعمه التي أدرَّها عليهم من وجوه كثيرة، ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ أي: عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾: السيل المتوعر، الذي خرب سدهم، وأتلف جناتهم، وخرب بساتينهم.

فلما أصابهم ما أصابهم، تفرقوا وتمزقوا، بعدما كانوا مجتمعين، وجعلهم الله أحاديث يتحدث بهم، وأسمارا للناس، ولكن لا ينتفع بالعبرة فيهم إلا من قال الله فيه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ:١٩].

وإن مثل هذه الآيات الكونية العظيمة لابد أن يكون للمؤمن معها وقفات تفكر واعتبار، وهذا من سمات المتقين الأخيار، ﴿ وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص:٤٣].

والمؤمن اللبيب البصير يقف عند مواقع العبر، وأحكام القدر، ينظر ويتدبر.

والاعتبار أمر يشمل كل من وصلته الأخبار، أو شاهد الصور، والناس يتفاوتون في قدرتهم على الاتعاظ بما يسمعون ويرون، والباحث عن الخير يسعى للنظر والتأمل في الدروس المستفادة، ويبحث عن دروس أخرى تنفعه في أمر دينه ودنياه.

وإنَّ في مراحلِ العمُر، وتقلّبات الدّهر، وفجائع الزمان لعِبَراً ومزدجراً، ومَوعِظةً ومُدّكَرَاً، يحاسِب فيها الحصيف نفسَه، ويراجع مواقفَه، حتى لا يعيشَ في غَمرة، ويؤخَذَ على غِرّة.

وإن من الملاحظ : تكاثر المتغيرات الكونية على هذه الأرض، وتتابع الحوادث والكوارث في هذا العصر.

ولعل المتأمل والناظر بعين راصدة، وقلب يقظ، لبعض هذه الآيات والحوادث والكوارث والنذر ما بين موجٍ عاتٍ، وماءٍ طاغٍ، وخسفٍ مهلك، وزلزالٍ مدمر، ووباءٍ مميت، يتذكر قوله تعالى: ﴿ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف:١٦٨].

بداية الكارثة

في يوم الأربعاء الثامن من ذي الحجة لعام ألف وأربعمائة وثلاثين من الهجرة النبوية، عندما بدأ الناس بالتوجه نحو مكة لأداء الحج، ابتدأ هطول الأمطار الساعة السادسة صباحا بشكل متقطع، واستمر حتى الساعة الحادية عشرة صباحا، وبعدها ازدادت غزارة الأمطار حتى الساعة الثالثة ظهرا بحيث منع المطر الرؤية من مسافات قريبة، ونشأ عن ذلك تجمع المياه على هيئة بحيرات صغيرة في أجزاء من أطراف مدينة جدة وفي داخلها، ثم بعد ذلك تحركت السيول القادمة من وادي قوس ووادي فاطمة، إضافة إلى الأمطار التي بلغ معدلها ٩٠ملم، والتي لم يسبق أن هطل على محافظة جدة مثل هذا المعدل منها، حيث تدفقت المياه بصورة كبيرة جراء السيول فأدت إلى حدوث أضرار في شرق مدينة جدة وجنوبها. وأثرت على قرابة ٢٠٪ من مدينة جدة، ولا تزال الأيام القادمة حُبلى بكثير من المخاوف ، سواء كانت مخاوف من السيول، أومخاوف من مياه الصرف الصحي لاسيما البحيرة المسماة ببحيرة المسك(١) الواقعة شرق الخط السريع، والتي أصبحت مصدر قلق كبير للسكان المجاورين لها كحي بريمان وحي السامر وحي الأجواد خوفا من انفجارها

(١) أُطلق عليها هذا الاسم، واشتهرت به، وإلا فهي في حقيقتها مياه نتنة قذرة موبوءة؛ والأولى أن تسمى الأشياء بحقائقها، فيقال: مياه الصرف الصحي، ومما يبين حجم القلق أن عددا كبيرا من ناقلات مياه المجاري تُفرغ حمولتها فيها يوميا، ويُقدر عمر هذه البحيرة بخمسة وعشرين عاما؛ لذا يقول الخبراء أن انفجارها سيدمر جزءا كبيرا من محافظة جدة، وستكون مرتعا للأوبئة والأمراض الفتاكة سنين عددا – نسأل الله العافية–، ولذا يبذل المسؤولون وولاة الأمر– وفقهم الله– جهودا حثيثة لعلاج هذه المشكلة، وتدارك الأمر قبل فوات الأوان.

وتحطم سدودها الاحترازية، وقد قام المسؤولون في الدفاع المدني، بتوجيه السكان لأخذ الاحتياطات اللازمة، لاسيما عند نزول الأمطار، نسأل الله اللطف والسلامة والمعافاة.

السيل يقطع ما يلقاه من شجر　　　بين الجبال ومنه الأرض تنفطر
حتى يوافي عباب البحر تنظره　　　قد اضمحل فلا يبقى له أثر

وكان هذا مشاهدا في سيول جدة، مياه تتدفق من كل مكان، لا حواجز توقفها، ولا جدران تصدها، تدمر كل شيء أتت عليه من أخضر ويابس، وصغير وكبير، ورجل وامرأة، فابتلع السيل سيارات بركابها، وبيوتا بسكانها، حتى طفت الجثث فوق سطح الماء.

قال أحد شهود العيان : قمت بِعدِّ الجثث التي تطفو على الماء من حولي ويجرفها السيل، فبلغت (٣٨) جثة رأيتها بعيني.

الدروس والعبر التي يستفيدها المسلم من هذا الحدث

ما يستفاد من هذه الفاجعة من دروس وعبر لايمكن حصره، ولكن من أبرز الدروس ما يلي:

﴿ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴾.

إن ما حدث يدل دلالة قاطعة على ضعف الإنسان، وافتقاره الذاتي إلى ربه، وأنه لا حول له ولا قوة إلا بالله، ومن رأى ضعف الناس أثناء الكارثة وبعدها أمام هذا السيل الداهم ومخلفاته، علم قبح الكبر والغرور، فلا بد أن يعرف الإنسان قدر نفسه وقوة ربه سبحانه وتعالى؛ فيفتقر إليه في أحواله كلها، وينطرح بين يديه طالبا المعونة والتسديد والتوفيق، ولا يستكبر عن عبادته، ولا يتولى عن العمل بشرعه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴾ [الحديد:٢٥]، ﴿ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴾ [النساء:٢٨].

قال ابن القيم رحمه الله : الفقر فقران :

فقر اضطراري: وهو فقر عام لا خروج لبر ولا فاجر عنه، وهذا الفقر لا يقتضي مدحا ولا ذما، ولا ثوابا ولا عقابا، بل هو بمنزلة كون المخلوق مخلوقا ومصنوعا.

والفقر الثاني : فقر اختياري هو نتيجة علمين شريفين، أحدهما: معرفة العبد بربه، والثاني: معرفته بنفسه، فمتى حصلت له هاتان المعرفتان أنتجتا فقرا هو عين غناه، وعنوان فلاحه وسعادته، وتفاوت الناس في هذا الفقر بحسب تفاوتهم في هاتين المعرفتين، فمن عرف ربه بالغنى المطلق، عرف نفسه بالفقر المطلق، ومن عرف ربه بالقدرة التامة، عرف نفسه بالعجز التام، ومن عرف ربه بالعز التام، عرف نفسه بالمسكنة التامة، ومن عرف ربه بالعلم التام والحكمة، عرف نفسه بالجهل)[١].

وما تدري نفس بأي أرض تموت

أناس قدموا إلى جدة من مدن ودول أخرى قبل الكارثة بيوم أو يومين ليكون موعدهم مع السيل، ومدفنهم في أرضه ووحله ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ [لقمان: ٣٤].

وآخرون خرجوا من بيوتهم بأسباب متعددة فأنجاهم الله، ومنهم من ذهبوا إلى حج بيته فأنقذهم الله تعالى من السيل.

سرعة تقلب الأحوال

وإدالة الأيام بين الرخاء والشدة، والأمن والخوف، فالعام الماضي كان الناس يستبشرون خيرا برؤية السحاب، وبوادر نزول الأمطار، واليوم ـ وبعد فاجعة جدة ـ صار الجميع يتوجس خيفة من تجمع السحب، أو نزول المطر، وصدق الله العظيم: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

---

(١) طريق الهجرتين (٢٣-٢٤).

المصاب عظيم

فلا ماء، ولا كهرباء، وانهيار وبكاء، وبيوت تصدعت، وأرامل وأطفال في الشوارع والطرقات، والقمامة أرتال كالجبال، ومستنقعات في وسط الأحياء، تحوم حولها الحشرات، والروائح الكريهة.

ومساجد كاملة أقفلت: لا سجاد، ولا مصاحف، ولا كهرباء، واختلاط مياه المجاري بمياه الخزانات.

- يقول تاجر للأغنام: رأس مالي ٣٦٥ شاة أعددتها في اليوم السابع؛ لنقلها للبيع في مكة، فهلكت كلها.

- عائلات فُقدت بكاملها رجالا ونساء وأطفالاً، وجثث ملقاة على الأرصفة، وأخرى عالقة بين الأعمدة والأشجار، وأخرى تُستخرج من الحفر والمستنقعات، ومن تحت الركام، وحطام السيارات.

- وطفل مات في حضن أبيه الميت، ورجل يسير مع أربع نسوة، فيأتي السيل فيخطف إحداهن أمام بصره، فيمسك بالثلاث وهو يراها تغرق أمام عينه لا يقدر على شيء، ثم يخطف السيل الثانية، ومن بعدها الثالثة والرابعة، وهو ينظر حتى اجتاحه السيل معهم.

- وآخر وجد أمه على مسافة بعيدة بعد أن حبسها عمود.

- وآخرحاول الخروج بعائلته المكونة من الزوجة وابنين وثلاث بنات من حي قويزة؛ هربا من السيل، إلا أن قوة السيل أوقفت سيارتهم الصغيرة فخرج منها ومعه الولدان والبنتان الوسطى والرضيعة، محاولين الوصول إلى طائرة الدفاع المدني، لكن قوة السيل جرفتهم جميعا، ففقدت الرضيعة، أما الأم والبنت الأخرى

فنجتا بعدما خرجتا من الجانب الآخر للسيارة وسقطتا في حفرة حفرها السيل، وتمكن الدفاع المدني من انتشالهما وهما مصابتان بكسور عدة متفرقة، حيث تم نقلهما على الفور إلى المستشفى، وأصيبت الأم بغيبوبة عندما علمت بخسارتها الفادحة.

- وهذا أحد المواطنين يقول: لقد ارتفع منسوب المياه كثيرا داخل الحي وتفاجأنا بالسيول تداهمنا داخل منازلنا، فهربنا إلى الأدوار العليا، وقد تضررت منازلنا كثيرا، وسحبت السيول سياراتنا أمام أعيننا دون أن نقوم بأي شيء لإيقافها؛ لأن أي محاولة قد تعرضنا للموت والهلاك.

- وهذا آخر يقول: غرقت زوجتي وهي تتحدث معي على الهاتف، أثناء دوامي، وكانت تستنجد بي بعدما دهمتها مياه السيول هي وأطفالي الثلاثة واثنتان من شقيقاتي، ثم اختفى صوتها وأغلق جهازها الجوال، وبعد مضي ساعة على اختفاء الصوت أبلغني أحد جيراني أنها توفيت ومن معها داخل المنزل.

- سمع أحدهم وكان محجوزا بسبب السيل جارته تصرخ بأعلى صوتها بعد موت أطفالها الثلاثة وهم نائمون في الطابق الأول، ولم يرد عليها أحد.

- ودع الزوج زوجته وأطفاله وذهب إلى مقر عمله، ليعود بعد ساعتين ليجد كل شيء أثرا بعد عين، فأصبح وحيدا بلا زوجة ولا أطفال، وقال له أحدهم: إن الأم وأطفالها صعدوا إلى سطح البناية التي لا ترتفع عن الأرض سوى ثلاثة أمتار، وفي لحظات قليلة جرفتهم السيول الداهمة.

- وهذا زوج مصاب ظل يبحث طوال الأيام الماضية عن زوجته المفقودة في السيل، ولم يترك مكاناً إلا أتاه مستمسكاً بالأمل ولو أن يجد جثة زوجته، وعلى بعد ١٢ كيلو مترا من مقر منزله عثرت فرق الإنقاذ على جثة زوجته، ولما حملت الجموع الجثة، علا صوت الزوج بالبكاء في مشهد أبكى معه العشرات.

- وامرأة تقول : رأيت جارتي وأطفالها الخمسة يموتون أمام عيني.

- ورب أسرة يقول: أنا وأولادي من اليوم الثامن حتى ثاني يوم العيد لا مأوى لنا إلا سيارتنا.

- وآخر يقول: زوجتي حامل وأسقطت وسط المطر.

- وأخرى أسقطت في الوحل.

- وأم مصابة والهة تقول : أبنائي السبعة لم يبدلوا ملابسهم.

- والكثير من الناس ذهبت أصول مكاسبهم، أو تضررت تضرراً بالغاً (من ورشة، ومصنع، ومخزن، ومحل...) ونحو ذلك.

-وبعض الطرق الفسيحة التي كانت تعتبر شرياناً للحركة في المدينة، ونموذجاً لجمال المدينة، ودقة الهندسة، وحسن التخطيط، غمرتها السيول في لحظات، وأغرقت كل من كان بداخلها من البشر والسيارات؛ لعدم وجود قنوات تصريف تليق بالأمطار!!.

- وكثير من الطرق تمزقت أوصالها، وقذف السيل عليها ألوف السيارات المحطمة، حتى وصلت طوابق السيارات أربعة طوابق وزاد عددها عن ثلاثة آلاف سيارة في منظر مخيف ومروع.

لِكُلِّ شَيْءٍ إذا ما تمَّ نُقصَـــانُ ... فلا يغرُّ بطِيب العَيشِ إنسانُ

فجائع الدنيا أنواعٌ منوعـــةٌ ... وللزمـان مسراتٌ وأحـزانُ

وَهَذِهِ الدَّارُ لا تُبقِي على أحدٍ ... ولا يدُومُ عَلَى حَالٍ لَهَا شانُ

- وتعددت البلاغات التي وصلت إلى غرفة العمليات في جدة بسبب الالتماس الكهربائي داخل البيوت، وحالات الاحتجاز لعشرات الأشخاص داخل المركبات والمنازل، وإصابات في أحياء جنوب جدة، وتضرر بالغ للمنازل بسبب تسرب المياه إليها.

- وحصل ارتباك ملحوظ في الحركة المرورية، عانى منها جميع مرتادي الطرق الرئيسية التي غمرتها مياه الأمطار، مما أدى إلى تعطل الحركة فيها.

- وتسببت الأمطار في انقطاع التيار الكهربائي عن محافظة رابغ لمده أربع ساعات، مما أدى إلى نشوب عدة حرائق في عدة منازل شعبية، بلغ عددها سبعة حرائق، وجرى إخلاء خمس عوائل كانت محتجزة داخل السيول.

- وتسببت السيول أيضا في إخلاء (٩٠) منزلا، وتم إسكانهم في قاعات أفراح بالمحافظة.

- وهناك مصادر مسئولة في أمانة جدة قدرت حجم تكاليف الأضرار بأكثر من (ملياري ريال)، تتوزع بين إصلاح وترميم البيوت، والمحلات التجارية، وقيمة الممتلكات الخاصة في المحال التجارية، وقيمة السيارات التالفة، التي جرفتها السيول، بخلاف تكاليف الممتلكات العامة الحكومية، وإصلاح الشوارع والطرقات، والإنارة والأرصفة.

- وبلغت مساحة المنطقة المتضررة أكثر من ٤٠٠ كيلومتر مربع تقريبا، يقطنها ٦٥٠ ألف مواطن.

وبعد هذا كله يحق لنا أن نقول : إن المصاب عظيم جد عظيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الإيمان بالقدر شفاء لما في الصدور

فالمؤمن يوقن بأن الله يعلم ما كان، وما يكون، وما سيكون، وأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن الله كتب مقادير الخلائق فلا يقع شيء إلا بعلمه، وكتابته، ومشيئته، وخلقه، ويؤمن بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

ويؤمن أيضاً بأن الله قد أمر بطاعته، ونهى عن معصيته، فيفعل الطاعة ؛ رجاء ثواب الله، ويترك المعصية ؛ خوفا من عقابه ؛ فإذا أحسن حمد الله، وإذا أساء استغفر الله.

فالإيمان بالقدر يثمر سكون القلب، وطمأنينة النفس، وراحة البال، وترك التحسر على ما فات، ويورث المسلم شجاعة، وإقداما، وقوة تحمل، ويطرد اليأس والقنوط من القلب.

ولهذا يجد المؤمنون بالقضاء والقدر راحة، وطمأنينة لا يجدها غيرهم ممن لا يؤمنون بقضاء الله وقدره.

يقول الله عز وجل: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾[الحديد : ٢٢، ٢٣].

وقد أخبر الله تعالى عباده بذلك لتتقرر هذه القاعدة في نفوسهم، ويبنوا عليها ما أصابهم من خير وشر، فلا يأسوا ولا يحزنوا على ما فاتهم، مما طمحت له أنفسهم وتشوفوا إليه، لعلمهم أن ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ، ولا بد من نفوذه ووقوعه، فلا سبيل إلى دفعه، ولا يفرحوا بما آتاهم الله فرح بطر، وأشر، وعجب.

فلا عجب أن تجد بعض المصابين ممن ربط الله على قلوبهم كانت نفوسهم طيبة في تلقي البلاء، وبعضهم يواسي بعضا.

وهذا حال المؤمن عند عموم البلاء: الصبر والمواساة، والإيمان بأن شيئا من ذلك لا يكون إلا بقدر الله.

الماء بعضه رحمة، وبعضه عذاب

فيغيث الله به البلاد والعباد، ويحيي به الأرض بعد موتها، ويثبت به المؤمنين في أرض المعركة كما قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال:١١].

ويبعثه على قوم آخرين ليكون عذاباً، كما قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[الفرقان:٣٧]. وقال: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾[الحاقة:١١]. وقال: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾[القمر:١١-١٢]، وقص علينا نبأ فرعون وقومه، وأخبر أنهم لما كذبوا بآيات ربهم أغرقهم في اليم: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾[الأعراف:١٣٦]

الموت يأتي بغتة

في غمرة الاستعداد لاستقبال العيد وفرحته، وبينما الناس منهمكون في إعداد الأضاحي والملابس، وكافة مستلزمات عيد الأضحى، يدهمهم فجأة ومن غير سابق إنذار سيل يحصد الأرواح، وفي هذا تذكير عظيم بيوم القيامة ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [الأنبياء:٤٠].

ما أصعب لحظات الوداع خصوصا حين يرى المرء الموت وهو يحاصره

- فهذا شاب منطلق بسيارته وفجأةً دهمته السيول، فأيقن أنه غارق لا محالة، فصعد على سطح سيارته واتصل بأهله وأقربائه وأصدقائه وودعهم، ثم جعل يتصل بأصحابه ومعارفه ليطلب منهم السماح، حتى انقطع الاتصال، ليرتفع صوت أهله بالبكاء.

- أسر وعوائل ذهبت بأكملها، وأخرى ذهب بعضها، أو لم يبق منها إلا واحد أو طفل صغير علق بشجرة!

- وأُخرى تقول: أسرتي غرقت في السيل، وأنا ممسكة بأطراف الباب.

لكل أجلٍ كتاب

لا يتقدم عليه ولا يتأخر عنه، ولا يغني حذر من قدر، فالموت مدرك جميع البشر لا محالة، ومهما هرب منه الإنسان فلا بد أن يأتيه، وقد رأينا أناسا امتنعوا عن الذهاب للحج خوفاً من أنفلونزا الخنازير، فإذا بالموت يأتيهم وهم في بيوتهم ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجمعة:٨].

وآخرون توكلوا على الله وذهبوا للحج، فكان سببا في سلامتهم من السيول.

وفتاة أصرت قبلها بليلة على البقاء عند عمها في زيارة عائلية؛ لتبقى بعد ذلك نظرات حزنها مرتسمة على وجهها ، وهي تفكر في أسرتها التي جرفها السيل.

ومن هول الفاجعة يفكر بعض الناس تفكيرا عجيبا غريبا، فهذا رب أسرة ربط أفراد أسرته بحبل واحد وقال لهم: إما أن ننجو جميعا، أو نهلك جميعا!!.

إن هول الموقف، وشدة الكرب، وعِظَم الفاجعة، تجعل العاقل مندهشا، وتدع الحليم حيرانا، وإن السعيد لمن جنب الفتن، ولمن ابتلي فصبر.

الشهادة فضل من الله يؤتيه من يشاء

فالشهادة من أعلى مراتب أولياء الله، والشهداء يختارهم الله من بين عباده، ولا سبيل لنيل هذه الدرجة إلا بفضل الله، وتقديره لأسبابها.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « **الشُّهَدَاءُ خَمْسَةٌ: الْمَطْعُونُ، وَالْمَبْطُونُ، وَالْغَرِيقُ، وَصَاحِبُ الْهَدْمِ، وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ الله** »[١]، وفي لفظ : «**وَمَنْ غَرِقَ فَهُوَ شَهِيدٌ** »[٢].

إذا وقع القدر عمي البصر

فمع أن لهذه الكوارث الكونية أسباباً طبيعية، وأحيانا يكون بمقدور البشر التنبؤ بها قبل وقوعها عن طريق الحسابات الدقيقة، إلا أن هذه الكارثة أثبتت قصور البشر سواء في التحليل وتوقع الأزمات، أو في الاستعدادات والاحتياطات، أو في التصدي لها ومحاولات النجاة.

والذهول عن بغتة القدر، مع الاستكانة لظاهر من العلم، من أسباب غفلة كثير من الناس.

---

(١) رواه البخاري (٢٨٢٩) ومسلم (١٩١٤).
(٢) رواه مسلم (١٩١٥).

إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ

بهذه الكلمات يقابل المؤمن المصائب والكوارث والسيول؛ فإنها من أبلغ العلاج وأنفعه للعبد في عاجله وآجله، وذلك ليوقن العبد يقينا جازما أن نفسه وأهله وماله وولده ملك لله عز وجل، وقد جعلها الله عنده عارية، فإذا أخذها منه فلا اعتراض، كما أن المعير لا يلام إذا أخذ عاريّته من المستعير.

وليعلم العبد أن مصيره ومرجعه إلى الله مولاه الحق، ولابد أن يُخلِّف الدنيا وراء ظهره، ويأتي ربه يوم القيامة فردا بلا مال، ولا أهل، ولا عشيرة.

ثواب الله خير لك منهم، ورحمة الله خير لهم منك

قال شبيب بن شيبة للخليفة العباسي المهدي يوم وفاة ابنته : (يا أمير المؤمنين أعطاك الله على ما رُزئت أجراً، وأعقبك خيراً، ولا أجهد بلاءك بنقمة، ولا نزع منك نعمة، ثواب الله خير لك منها، ورحمة الله خير لها منك، أسأل الله ألا يحزنك، ولا يفتنك)، فخفف عن الخليفة مصابه[١].

لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ

المصيبة تزيد إيمان المؤمن إذا صبر عليها، ورضي بها، وتقوي يقينه بأن الأمور بيد الله وحده لا شريك له، وأن الناجي منها إنما أنجاه الله تعالى بفضله ورحمته، وذلك من تمام إيمانه، قال تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[السجدة: ٢٤].

---

(١) تاريخ الطبري (٤/ ٥٩٣).

التوسط في الأسباب المادية وعدم الركون إليها

فالأخذ بالأسباب عمل بمقتضى الشرع والحكمة، والركون إليها جهل وخلل في كمال الإيمان والتوكل.

ولقد بلغت احتياطات السلامة في زماننا مبلغا عظيما، وجندت لها الأموال الطائلة، ومع هذا كله، تبقى تلك الوسائل البشرية مخلوقة مربوبة، لا يملك أصحابها لأنفسهم نفعاً ولا ضراً.

ففي طرفة عين يأمر سبحانه وتعالى الريح فتدمر ما أتت عليه، فتقتلع الأشجار، وتهدم البيوت، وتهلك من شاء الله تعالى هلاكه، ويأتي الفيضان بأمر الله، فيغرق المدن ومن فيها، وأما الزلازل فهي آية أخرى من آيات الله، يسوي الله بها مدناً بالأرض ، فأين قوة البشر وقدرتهم ؟.

وأين دراساتهم وأبحاثهم؟.

وماذا قدمت مكتشفاتهم ومخترعاتهم ؟.

هل دفعت لله أمرا ؟.

وهل منعت عذاباً ؟.

أو أوقفت بلاء؟.

كلا، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وهو سبحانه وحده لا شريك له، ملاذ الخائفين، وملجأ الهاربين، وهو على كل شيء قدير.

تذكر الآخرة : نفسي نفسي

مئات السيارات يجرفها السيل، وركابها يرفعون أيديهم، ويصيحون طالبين الغوث والنجدة، ولكن كل انسان مشغول بنفسه، إنه مشهد يتذكر به المؤمن اليوم الآخر، والذي شعار أنبياء الله تعالى فيه :(نفسي نفسي) كما في حديث الشفاعة الطويل(١)..فكيف بغيرهم!.

لمن الملك اليوم

خرج بعض الناس من السيل لا يملكون شيئا، لا بيتا، ولا سيارة، ولا أثاثا، ولا ملابس، ولا بطاقة صراف، ولا إثباتات شخصية، وبهذا يتذكر الإنسان كيف يأتي ربه يوم القيامة لا يملك شيئا، حفاة، عراة، غرلا، بهماً، ليس معهم شيء.

قالت هند بنت النعمان بن المنذر [ملك الحيرة] : «لقد رأيتنا ونحن من أعز الناس، وأشدهم ملكاً، ثم لم تغب الشمس حتى رأيتنا ونحن أقل الناس».

وسألها رجل أن تحدثه عن أمرهم فقالت : «أصبحنا ذات صباح وما في العرب أحد إلا يرجونا، ثم أمسينا وما في العرب أحد إلا يرحمنا »(٢).

إحياء عبودية الخوف من آيات الله

وقد كان هذا هو هدي النبي ﷺ إذا رأى شيئا من الآيات الكونية، قال أنس رضي الله عنه: (كانت الريح الشديدة إذا هبت، عُرِفَ ذلك في وجه النبي ﷺ)(٣).

فيقع منه هذا الخوف - بأبي هو وأمي ﷺ - وهو من غفر الله له ما تقدم من

---

(١) رواه البخاري(٤٧١٢) ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) زاد المعاد (٤/ ١٧٣) بتصرف.
(٣) رواه البخاري (١٠٣٤).

ذنبه وما تأخر، فكيف بحالنا نحن المذنبين المقصرين!!.

وقال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]، ولا شك أن هذا السيل من آيات الله التي يخوف بها عباده.

التأمل في كثرة نعم الله علينا

من الدروس المستفادة من هذه الفاجعة -لمن رزقه الله تأملا وفهما- أنه إذا نظر لمصاب الناس وبلائهم نطق قلبه قبل لسانه قائلا: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به، وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلا.

فإذا نظر إلى من ذهبت أسرته، استحضر نعمة الله عليه بحفظ أهله، وإذا شاهد صور تلف الأموال، والممتلكات، انتقل إلى معاينة نعمة الله عليه بحفظ أمواله وممتلكاته، وهكذا المؤمن إذا نظر إلى مصائب الآخرين العظيمة، هانت عليه مصائبه الصغيرة، فامتلأ قلبه بحمد الله، ولهج لسانه بشكره، واستحيت جوارحه من أن تعصي ربه المنعم، والمتفضل عليه بالخيرات والهبات، أو أن تقصر في شيء من حقوقه سبحانه.

المؤمن يتألم لألم إخوانه

ينبغي لمن نظر في هذه المشاهد على أرض الواقع، أو في الصور ومقاطع الفيديو، أن يتحرك قلبه تجاه المصابين والمنكوبين، وتدمع عينه، ويلهج لسانه بالدعاء وسؤال الله الرحمة لمن مات، والسعي لتثبيت من ابتلي وتصبيره، وإعانة من يحتاج إلى العون، ويسأل الله تعالى له ولإخوانه السلامة والعافية.

ابتلاءٌ للمؤمن، وعقوبة للعاصي، وتخويف للناس، وتمحيص للناظرين والمتكلمين

إن الابتلاءات سنة ربانية اقتضتها حكمة الله سبحانه في هذه الدار؛ لتكون داراً للامتحان بالشهوات، والفقر، والمرض، والخوف، والنقص في الأموال، والأنفس، والثمرات، فال تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء:٣٥].

فهذه الفاجعة ابتلاء، ابتلى الله بها عباده المؤمنين؛ ليرفع درجاتهم، ويقوي إيمانهم، قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[البقرة:١٥٥].

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة:٢١٤].

وفيها حث لأهل المعاصي والذنوب على التوبة والإنابة إلى الله التواب الرحيم، ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾[الشورى: ٣٠]، فالله تعالى يغار وغيرته أن يأتي عبده المؤمن ما حرم عليه [١]، وقد عاتب الله تعالى خير القرون من أصحاب خير الأنبياء محمد ﷺ عندما تساءلوا عن سبب مصيبة يوم أُحد، وهم في جهاد في سبيل الله، ومعهم رسول الله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ ﴾ فأمر الله تعالى نبيه أن يبيِّنها لهم بكل صراحة ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

---

(١) رواه البخاري (٥٢٢٣) ومسلم (٢٧٦١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

فإذا كان هذا حال أولئك القوم الأبرار الأطهار رضي الله عنهم وأرضاهم، عندما خالفوا أمراً واحدًا من أوامره ﷺ أصابهم ما أصابهم، فغيرهم من أهل العصيان متوعدون لأن يعاقبهم الله بشيء من ذنوبهم، ما لم يتوبوا، ولا يُنكر هذا إلا من كان جاهلا بالله وشرعه.

قال بعض السلف : لا ينزل بلاء إلا بذنب، ولا يكشف إلا بتوبة.

فالواجب في مثل هذه الأحوال التوبة، وكثرة الاستغفار، وأخذ العظة والعبرة.

قال الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله: (وإن من علامات قسوة القلوب وطمسها والعياذ بالله، أن يسمع الناس قوارع الأحداث، وزواجر العبر والعظات التي تخشع لها الجبال لو عقلت، ثم يستمرون على طغيانهم ومعاصيهم مغترين بإمهال الله لهم، عاكفين على اتباع شهواتهم، غير عابئين بوعيد، ولا منصاعين لتهديد)[1].

فالواجب على جميع المسلمين أن يأخذوا العظة والعبرة مما حصل، وأن يتوبوا إلى الله، وينيبوا إليه، ويحذروا من أسباب غضبه ونقمته، والله جل وعلا يقول: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾[الأنعام:٦٥].

فالمصائب منها تكفير، ومنها تذكير، ومنها عقوبة، وقد تجتمع هذه الثلاث في مصيبة واحدة فتكون لبعض الناس تكفيرا لذنوبهم، ورفعة لدرجاتهم، وتكون لآخرين غافلين تنبيها وتذكيرا، ولنوع ثالث عقوبة على معصية معلنة، أو خفية وقعوا فيها، وتكون تمحيصا وكشفا لحال من يتكلم في هذه الأحداث.

---

(١) مجموع فتاوى ابن باز (٩/ ١٦٠).

الحذر من التحليلات العشوائية

ومما يعجب منه: ما يقوم به بعض أصحاب الأقلام المسمومة من نفي وجود علاقة بين المعاصي والذنوب، وبين المصائب والكوارث.

يقول أحدهم: القضية ليست بحاجة إلى موعظة دينية، وليس من اللباقة أن يستغل هذا الحدث، ونبعد الناس عن الأسباب الحقيقية، وننسب ذلك لتقصيرنا في عبادتنا، كل الذي حصل إنما هو بسبب عدم وجود بنية تحتية للمدينة.

ويقولون: الضحايا والخسائر انحصرت في الفقراء، ولم تُصَبْ المنشآت السياحية أو التجارية الكبيرة بسوء.

فالله سبحانه يدعونا إلى الاتعاظ والاعتبار بهذه الأحداث، وهؤلاء يقولون : لا داعي لذلك، كل ما في الأمر أنها أسباب دنيوية.

إن تعليق الأمور بأسباب غير شرعية فقط مما يزيد في الغفلة ويهوِّن أمر المعصية، **فالحق أن نقول: كما أن للمصائب والكوارث أسباباً ماديةً معروفة، فإن لها أسباباً شرعية كذلك**، ووجود الأسباب المادية لا يتنافى مع الأسباب الشرعية.

فالظلم، والبغي، والذنوب والمعاصي، وأكل الحقوق، كلها أسباب لنزول المصائب العامة والخاصة على مستوى الأفراد والجماعات، بل على مستوى العالم كله أحياناً.

كما في قوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم:٤١].

(يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات، اختبارا منه، ومجازاة على صنيعهم،

لعلهم يرجعون عن المعاصي)[١].

فالذنوب والمعاصي هي سبب رئيس لنزول المصائب بالناس : ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [النساء:٦٢]، ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء:٧٩]، ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى:٣٠].

قال ابن تيمية رحمه الله : (والقرآن يبين في غير موضع أن الله لم يُهلك أحدا، ولم يعذبه إلا بذنب)[٢]، ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٠].وقال:﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾ [الكهف:٥٩]، ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل:١١٢].

والمصائب النازلة بسبب الذنوب تعم الناس : ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[الأنفال:٢٥].

عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **إِذَا ظَهَرَتْ الْمَعَاصِي فِي أُمَّتِي عَمَّهُمْ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ**»، فقلت: يا رسول الله أما فيهم يومئذ أناس صالحون ؟ قال: « **بَلَى**»، قالت: فكيف يصنع أولئك؟ قال: «**يُصِيبُهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ، ثُمَّ يَصِيرُونَ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ اللهِ وَرِضْوَانٍ** »[٣].

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٢٠).
(٢) مجموع الفتاوى (١٤/ ٤٢٤).
(٣) رواه أحمد (٢٦٠٥٦) وصححه ابن حجر.

وعن صفية بنت أبي عبيد قالت: زلزلت الأرض على عهد عمر حتى اصطفقت السرر، فخطب عمر الناس فقال: أحدثتم لقد عجلتم، قالت: ولا أعلمه إلا قال: لئن عادت لأخرجن من بين ظهرانيكم[١].

أي: ما حصل ذلك إلا بسبب ذنوب اقترفتموها، وهذا في مدينة رسول الله ﷺ، وبوجود خيرة أصحابه رضي الله عنهم.

وفي الحديث: « **ما اختلج عرق، ولا عين، إلا بذنب، وما يدفع الله أكثر** »[٢].

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « **أُمَّتِي هَذِهِ أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ، لَيْسَ عَلَيْهَا عَذَابٌ فِي الْآخِرَةِ، عَذَابُهَا فِي الدُّنْيَا: الْفِتَنُ وَالزَّلَازِلُ وَالْقَتْلُ** »[٣].

قال ابن القيم رحمه الله: (فكل نقص وبلاء وشر في الدنيا والآخرة فسببه الذنوب، ومخالفة أوامر الرب)[٤].

وقال: (عقوبات الدنيا العامة وبلاؤها من آثار غضبه، فإذا استمر غضبه استمر ذلك البلاء، فإذا رضي وزال غضبه، زال البلاء وخلفته الرحمة)[٥].

فالمصائب كلها بسبب الذنوب، ولكن المصيبة للمؤمن خير له؛ لأن الله تعالى يكفر بها من خطاياه حتى يخرج من الدنيا وليس عليه خطيئة.

وأما الكافر فإن الله يمسك عنه بذنوبه، ويغدق عليه النعم استدراجا له؛ ليزداد من الكفر والمعاصي حتى يوافي بها يوم القيامة.

---

(١) رواه البيهقي (٦٦٠٤) بسند صحيح.
(٢) رواه الطبراني في المعجم الصغير (٢ / ٢١٦) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما وصححه الألباني.
(٣) رواه أبو داود (٤٢٧٨) وصححه الألباني.
(٤) مدارج السالكين (١ / ٤٢٤).
(٥) شفاء العليل (١/ ٢٦٣).

سؤال الله حسن الخاتمة

فقد نقلت الأخبار قصصا لأناس قبض الله أرواحهم في المساجد، أو بعد خروجهم منها؛ لأن السيل دهمهم وقت صلاة الظهر، وبعضهم صائمون لله تعالى في أيام العشر الفاضلة، فجمع الله لهم من المبشرات: الغرق الذي هو شهادة، والموت على عبادة، وبعد أداء فريضة، فما أعظم ما حصّلوه بفضل الله، نسأل الله حسن الخاتمة.

لقد جمع الله لهم بمنته وكرمه أنواع الصبر الثلاثة : الصبر على طاعة الله بالذكر والصلاة، والصبر عن معصية الله بالصيام، والصبر على أقدار الله بما أصابهم، وإنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب.

قال قتادة : لا والله ما هُناكم مكيال ولا ميزان[١].

حفظن الله فحفظهن

قالت إحدى مغسلات الأموات: استقبلت أماً وبناتها الثلاث أدركهن السيل وهن عائدات لبيتهن، فقبضت أرواحهن وهن في كامل حجابهن، ولم ينكشف حجابهن حتى بعد الغرق، مما ألجأني إلى قص الحجاب وسط انهمار دموعي، ودعائي لهن بالرحمة والمغفرة.

الناس معادن

إن من جوامع كلمه ﷺ قوله: « **النَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ** »[٢].

فالمعادن تشتمل على جواهر مختلفة من نفيس وخسيس، وكذلك الناس

---

(١) تفسير الطبري (٢١ / ٢٧٠).
(٢) رواه البخاري (٣٤٩٤) ومسلم (٢٦٣٨) - واللفظ له - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

مختلفون في الشرف، وكرم النفس، وحسن الخلق.

فمن الناس من معدنه نفيس كالذهب، ومن الناس من معدنه خسيس كالحديد.

وقد كشفت هذه المحنة حقائقَ كثيرٍ من الناس ومعادنِهم وأخلاقهم، فمن الناس من لا يُعرف معدنه إلا في المِحَن والشدائد.

قال الحسن البصري رحمه الله: (الناس ما داموا في عافية مستورون، فإذا نزل بهم بلاء صاروا إلى حقائقهم)[١].

فظهر المؤمنون الذين أسرعوا لنجدة إخوانهم، ومساعدتهم، متمثلين قوله ﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**»[٢].

ولجنة أهالي جدة قامت بتوزيع (٢٠) ألف سلة غذائية، و(٤٠٠) من المتطوعين.

اختبار لأهل الأموال

ومن المواقف في هذه الآيات والابتلاءات ما يبتلي الله به عباده القادرين الموسرين فينظر كيف يعملون، هل ينفقون من مال الله الذي آتاهم ؟.

وهل يسارعون في نجدةٍ، أم تراهم يقبضون أيديهم، وينسون ربهم، وينسون إخوانهم، ويعيشون في غفلتهم؟.

---

(١) شعب الإيمان (٧ / ٢١٩).
(٢) رواه البخاري (٦٠١١) ومسلم (٢٥٨٦) – واللفظ له – من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما .

وفي خضم هذه الابتلاءات حدث بما تشاء عن أنواع الإغاثات، والخدمات التي يبذلها الرجال الصادقون الموفقون، من غذاءٍ، وكساءٍ، وعلاجٍ، وتعليمٍ، وإيواءٍ، وغيرها من صور المواساة، والبذل، والعطاء.

ومن رحم من في الأرض رحمه من في السماء؛ فلله الحكمة البالغة في خلقه وأمره وتدبيره وصنعه، وفي آياته وابتلاءاته.

وقد سمعنا وقرأنا الكثير من قصص الشجاعة والبطولة والتضحية:

- فهذا شاب لا يعرف السباحة ولكنه أمام مشهد غرق رجل وزوجته وطفله لم يتوان عن نجدتهم، فقفز إلى الوادي وأنقذ الطفل ثم المرأة والرجل، فقَبَّلَ الغريقُ قدمَه قائلاً: «أنا مدين لك طوال العمر».

- وهذا الظاهري يكسر النافذة لينقذ ١٧ أسرة من الغرق في السيول.

- وشكّل بعض الشباب والرجال فرقاً لإنقاذ العالقين داخل سياراتهم وسط السيول، خصوصا الأطفال والنساء، وظهرت آثار الشباب الصالحين وشهامة أهل النجدات بجلاء.

قال أحدهم: تلقيت اتصالا أن والدي وبعض المسنين وعددهم (٤٠) شخصا يصلون في المسجد وقد غمرته المياه، فتوجهنا سباحة إلى المسجد ومعنا حوالي عشرة من شباب الحي منهم إمام المسجد، وأنقذنا المسنين المحتجزين داخله.

وقال بعضهم: كنا نجوب الشوارع ذهاباً وإياباً بحثاً عن أناس فقدتهم عوائلهم ولم يجدوا لهم أثراً، واستطعنا نقل سبع جثث كانت غارقة في مياه الفيضانات، ولا يزال يعمل مع أصدقائه من سكان الحي في البحث والتنقيب عن موتى طمرتهم مياه السيول داخل الحي.

وقال آخر: جئنا للبحث عن المفقودين، ومواساة من فقدوا ذويهم، بعد أن

شاهدنا حجم المأساة والخسائر التي ألمت بهم، في الممتلكات والأرواح.

- واستجمع عشرات المتطوعين كل قواهم، ليلا ونهارا، للإسهام في واجب البحث عن المفقودين بلا كلل أو تعب وسط الحطام، والمياه الراكدة.

- وهَبَّ الكرماء وأصحاب العطاء لاستقبال إخوانهم المنكوبين، ففتحوا بيوتهم، وبسطوا موائدهم، وقدموا معوناتهم.

- وأما المنافقون فقاموا ينسبون الحدث إلى الطبيعة، ولا يذكرون الله إلا قليلا، وينكرون القاعدة الشرعية ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء:٧٩] ويلمزون أهل الإيمان والتقى، وهؤلاء من الذين لا ينتفعون بآيات الله الكونية والشرعية، فحسبهم ما هم فيه من الجهل، وما هم عليه من الضلال، ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [الجاثية : ٢٤].

الاستغلال البشع للكارثة

وفي مقابل أهل النجدة والشهامة، ظهر أصحاب النفوس المريضة، والقلوب الجشعة؛ فاستغلوا الحدث وجعلوه فرصة للكسب المادي السريع، ومن صور ذلك:

الاستيلاء على الممتلكات، وسرقة ونهب ما تمكنوا من نهبه داخل المركبات المجروفة، مستغلين انشغال أصحاب تلك الممتلكات بأنفسهم وغيابهم عنها، بل بلغت البشاعة أن تسرق أموال الموتى داخل سياراتهم، وتسرق بيوت المصابين والجرحى، وهم لا يستطيعون دفع هؤلاء المعتدين، ثم تباع هذه المسروقات بثمن بخس.

رفع أسعار السلع والخدمات: كمغاسل السيارات، وسيارات شفط المياه، والرافعات وسيارات السحب، والشقق المفروشة!، وبعض شركات النظافة رفعت أسعارها أضعافا مضاعفة.

ذكرت إحدى الناجيات أنها استنجدت هي وأهلها بصاحب سيارة كبيرة فاشترط عليهم دفع مبلغ ٥٠٠ ريال مقابل إنقاذهم إلى موقع آخر لا تتعدى مسافته عشرات الأمتار.

وبعض الناس مشغول بتصوير المنكوبين بكاميرا جواله وهم يستغيثون، ومن المتفرجين من ترك الإنقاذ وهو يقدر عليه، وأما من لا يقدر فغفر الله له.

كانت طفلة تبكي بأعلى صوتها، وتنادي والديها، وأمواج السيل تتلاطمها يمنة ويسرة، وفي كل مرة تحاول الإمساك بجثة تمر بجانبها لعلها تتشبث بأمل ينقذ حياتها، والناس ينظرون إليها ولا يحركون ساكنا !! ولا زال صراخها في آذانهم إلى أن اختفى.

يا رب أم وطفل حيل بينهما كما تفرق أرواح وأبدان

بين قدر الله والإهمال البشري

لاشك أن هذه الكارثة والفاجعة التي حصلت إنما هي بقضاء الله وقدره، ولكن هذا لا ينفي أن إهمال بعض البشر وتفريطهم وجشعهم وإساءتهم سبب من أسباب الكارثة، يُلام فيه من أساء، ويُعاقب فيه من ظلم، ومن ذلك ترخيص المخططات السكنية في مجاري السيول، والسكن في بطون الأودية، واستخراج أذونات لبيع الأراضي في تلك المناطق بالرشوة والواسطة، وسوء التخطيط، والتأخر في إنجاز مشاريع تصريف المياه، والغش في بناء المساكن، وعدم تأمينها بما يحصنها من السيول ونحو ذلك.

فالتسليم لقضاء الله لا ينافي معاقبة المسيئين والمتسببين في هذه الكارثة.

نهب المال العام والتفريط في حفظه

إن من أخطر ما يمكن أن يلقى العبدُ ربَّه به يوم القيامة أكل المال بالباطل، فهي كبيرة من الكبائر التي تهلك العبد، وتثقل وزره يوم القيامة، وتفضي به إلى النار.

وقد وردت النصوص الشرعية الكثيرة في التنبيه على حرمة مال المسلم، وخطورة التعرض له بغير حق: «**كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ**»[1].

وقد جعل النبي ﷺ حرمة الأموال كحرمة البلد الحرام في التعظيم فقال: « **إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا**» فأعادها مرارا.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ثم رفع رأسه فقال: «**اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ**».

قال ابن عباس رضي الله عنهما: فوالذي نفسي بيده إنها لوصيته إلى أمته، فليبلغ الشاهد الغائب[١].

وإن من أشد الأموال خطورة: الأموال العامة، فالإثم فيها عظيم، وحرمتها أشد من حرمة المال الخاص؛ لأن المال العام حق مشترك بين جميع المسلمين، ولذلك فهو أشد حرمة من غيره، ويترتب على أخذه توزع الحق، وكثرة الخصماء يوم القيامة.

والمال العام هو المصطلح المعاصر لما كان معروفا في عصور الإسلام الأولى باسم (بيت المال).

ولفظ (بيت المال) يطلق على الجهة التي تَمْلِكُ المال العام للمسلمين.

ومن المقرر عند الفقهاء أن (سلطة التصرف في بيت مال المسلمين للخليفة، أو من ينيبه، ويكون تصرفهم فيه بما يحقق المصلحة لعموم المسلمين).

وقد أخذ العدوان على المال العام صورا عديدة، منها:

- أن بعضهم يختلس أموالا نقدية من الدولة بحجة أنه أحد مواطنيها، فقد بلغت الأموال المختلسة من المال العام في بعض الدول بالمليارات.
- وآخر يحتال على الأنظمة كي لا يدفع فاتورة الكهرباء، أو الماء.
- وبعضهم يعطل العدادات والأجهزة الخاصة بالاتصالات، فلا تظهر قيمة المبالغ التي صرفها في اتصالاته، والتي ربما تفوق الآلاف.
- وبعضهم يفرط في المرافق والوسائل التي تحت يده من أموال الدولة، فيُفرِط

---

(١) رواه البخاري (١٧٣٩).

في استعمال سيارة العمل، أو حبر الطباعة، أو أوراق التصوير، أو الكهرباء والمكيفات بدعوى أن هذا مال عام، وله حق فيه!!

- وآخرون يتهاونون في ساعات العمل الرسمي، فيأتون متأخرين، ويخرجون مبكرين، وآخرون يتغيبون ويطلبون من زملائهم تسجيل أسمائهم في دفتر الحضور والانصراف.
- ومن التخوض في المال العام أن يأخذ بعض الناس راتبا دون أن يقدم عملا، وقد يمكث الأيام والشهور من غير حضور إلى مكان العمل.
- أوترسية مقاولات المشروعات الحكومية بأكثر من تكلفتها الفعلية بأضعاف مضاعفة، وأحياناً على شركة ليست بالأكفأ، ولا بالأكثر جودةً وإتقاناً؛ ولكنها المحاباة التي جعلتها تُقدّم على غيرها.
- عدم الوفاء بشروط الجودة والإتقان في مشروعات الدولة، وهذه وإن لم تكن سرقة مباشرة لكنها في حكمها؛ لأن جزءاً من المال العام بُذل من أجل مواصفات الجودة والاتقان.

وكل هذه الصور على ما فيها من الإثم والشؤم، أخف وطأة على الفرد والمجتمع من فعل هؤلاء الذين تأتمنهم الدولة، وتضع تحت أيديهم أموالها، وأموال الناس، لإنجاز مشاريع يحصل بها النفع العام، ثم لا ينفذونها من الأساس، أو ينفذونها على وجه لا تبرأ به الذمة، ولا تتأدى به الأمانة، فيأخذ أحدهم من ذلك المال العام ما لا يستحقه، ويترتب على إخلاله بالأمانة ضرر وفساد عام.

وكم حصل من ورائه من هدم وغرق وحرق، وهلكة للأموال والأنفس والثمرات، ولا يكون وراء ذلك كله إلا جشع جاشع، أو طمع طامع، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وكون المال مالا عاما ليس مبرراً لأن يأخذ منه الإنسان بغير حق، بل الاختلاس من المال العام أشد إثما؛ لأنه يتعلق بحق جميع المسلين- كما سبق-.

عن خولة الأنصارية رضي الله عنها قالت سمعت النبي ﷺ يقول: « **إِنَّ رِجَالاً يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَلَهُمْ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** »[١] .

وفي الحديث: « **رُبَّ مُتَخَوِّضٍ فِيمَا شَاءَتْ بِهِ نَفْسُهُ مِنْ مَالِ اللهِ وَرَسُولِهِ، لَيْسَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا النَّارُ**»[٢].

فالواجب على كل موظف ومسئول وصاحب أمانة أن يرعى حق الله في المال العام، فلا يسيء التصرف فيه، ولا يطلق يده بالعبث به: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾ [النساء:٥٨] والأمانات كل ما ائتمن عليه الإنسان، وأُمر بالقيام به، فأمر الله عباده بأدائها أي: كاملة موفرة، لامنقوصة ولا مبخوسة، ولا ممطولا بها[٣]

وحذر الله تعالى من خيانة هذه الأمانات : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأنفال:٢٧].

فإن كتم شيئاً منه أو استعمله بغير حق لخاصة نفسه فقد خان أمانته، وأثم إثماً مبيناً، وقد قال الله تعالى : ﴿ **وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ**

(١) رواه البخاري(٣١١٨).
(٢) رواه الترمذي (٢٣٧٤) عن خولة بنت قيس رضي الله عنها ، وصححه.
(٣) تفسير السعدي (١٨٣)

مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [آل عمران:١٦١]. أي : (يأتي به حاملاً له على ظهره ورقبته، معذَّباً بحمله وثقله، مرعوباً بصوته، وموبخاً بإظهار خيانته على رؤوس الأشهاد.)[١].

وقال ﷺ: «**مَنْ اسْتَعْمَلْنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَرَزَقْنَاهُ رِزْقاً، فَمَا أَخَذَ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ غُلُولٌ**»[٢].

والخلفاء الراشدون والسلف الصالح كانوا قدوة طيبة في التعفف عن الأموال العامة التي هي حق المسلمين جميعا، كما قال عمر رضي الله عنه: إنى أنزلت نفسى من مال الله بمنزلة والي اليتيم، إن احتجت أخذت منه، فإذا أيسرت رددته، وإن استغنيت استعففت[٣]، يشير إلى قوله تعالى: ﴿ **وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ** ﴾ [النساء:٦].

وعن عياض بن غنم وكان أميراً لعمر رضي الله عنهما على حمص، أنَّه قال لبعض أقربائه في قصة طويلة: (فوالله، لأن أُشقَّ بالمنشار أحبُّ إليَّ من أن أخون فلساً، أو أتعدَّى!)[٤].

ولما نظر عمر رضي الله عنه إلى غنائم كسرى أيام القادسية قال : إن قوما أدوا هذا لأمناء. فقيل له : إنك عففت، فعفت رعيتك[٥].

ورحم الله عمر بن عبد العزيز الذي كان إذا أسرج سراجا في حاجة المسلمين يكتب كتابا أو غيره أسرج من بيت مال المسلمين، وإذا أراد أن يكتب في حوائجه أو

---

(١) تفسير القرطبي (٤/ ٢٥٦).
(٢) رواه أبو داود (٢٩٤٣) من حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه ، وصححه الألباني.
(٣) رواه البيهقي في سننه (١٣٣٩٢) وصححه ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢١٨).
(٤) صفة الصفوة (١/ ٢٧٧).
(٥)انظر: الكامل في التاريخ (١/ ٤٣٣)، البداية والنهاية (٧/ ٧٦).

في غيرها أسرج من ماله[١].

فأين هذا ممن نظر للمال العام على أنه غنيمة باردة، فأخذ ينهب منها ما يشاء بغير حساب

ثم يزداد البلاء، بتوالي الأزمان على الخيانة والغلول من أموال المسلمين، حتى يتعوده الناس، فلا يستغربون سماع أخباره، وربما تطور الأمر إلى عدم استنكاره: قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : (كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يهرم فيها الكبير، ويربو فيها الصغير، ويتخذها الناس سنة، فإذا غيرت قالوا: غيرت السنة، قالوا: ومتى ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: إذا كثرت قراؤكم، وقلت فقهاؤكم، وكثرت أمراؤكم، وقلت أمناؤكم، وَالْتُمِسَتْ الدّنيا بعمل الآخرة)[٢].

فإذا لم يؤخذ على يد الخائن، والغال من أموال المسلمين، صار النهب والسرقة قانونا، لا ينتهي عند حد، ولا يدع أخضراً، ولا يابساً.

ذكر الجبرتي في أحداث شهر ربيع الثاني عام ١١٩١هـ قال:

(وفي يوم الخميس عشرينه حصلت جمعية ببيت البكري، وحضر المشايخ وخلافهم وذلك بأمر باطني من صاحب الدولة، وتذاكروا ما يفعله قاضي العسكر من الجور والطمع في أخذ أموال الناس والمحاصيل؛ وذلك أن القضاة الذين يأتون من باب السلطنة كانت لهم عوائد وقوانين قديمة لا يتعدونها في أيام الأمراء المصريين، فلما استولت هؤلاء الأروام على المماليك، والقاضي منهم، فَحُشَ أمرهم، وزاد طمعهم، وابتدعوا بدعا، وابتكروا حيلا لسلب أموال الناس والأيتام

---

(١) تاريخ دمشق (٤٥/ ٢١٧).
(٢) رواه الدارمي (١٨٥) وصححه الألباني .

والأرامل، وكلما ورد قاض ورأى ما ابتكره الذي كان قبله، أحدث هو الآخر أشياء يمتاز بها عن سلفه، حتى فَحُشَ الأمر، وتعدى ذلك لقضايا أكابر الدولة، وكتخدا بك، بل والباشا، وصارت ذريعة وأمرا محتما لا يحتشمون منه، ولايراعون خليلا وكبيرا، ولا جليلا)[١] .

والمخرج من ذلك كله يكون بالأخذ على يد الغال، والخائن، والظالم، قبل أن يتفاحش الأمر، ويستفحل الخطر، ويهلك الجميع، عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: « **مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ، وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنْ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا**»[٢].

ينزل الله المعونة على قدر المؤونة

لما حاصر السيل منزل أحد المنكوبين دخل إلى بيته فحمل اثنين من أولاده على ظهره، وصعد بهم السطح، ثم نزل ليحمل آخرين حتى صعد بهم سطح منزله.

ويقول: كان بداخلي رجل قوي لم أكن أعرف من هو، ولم يظهر إلا بعد أن لامست خط الخوف من فقد أولادي وزوجتي المسكينة.

وفي الحديث: «**إِنَّ الْمَعُونَةَ تَأْتِي مِنْ اللهِ لِلْعَبدِ عَلَى قَدْرِ الْمُؤونَةِ، وَإِنَّ الصَّبْرَ يَأْتِي مِنْ اللهِ عَلَى قَدْرِ الْبَلَاءِ**»[٣].

---

(١) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبارللجبرتي (٢/ ٥١١-٥١٢).
(٢) رواه البخاري (٢٤٩٣).
(٣) رواه البزار (٨٨٧٨) والبيهقي (٩٩٥٦) من حديث أبي هريرةﷺ وصححه الألباني.

قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم

أم أرسلت ابنها ليتفقد إخوته مع بدء هطول الأمطار، وحين دهم السيل منطقتهم استطاع إخوته النجاة بالصعود إلى طابق أعلى، ولم يرجع أخوهم.

اختيار صعب في وقت الكرب

وهذا رجل يروي قصته فيقول: عندما طوقتنا المياه احترت فيمن أنقذ أولاً، وبعد تفكير قررت أن ألقي بطفلي وأحمي والدتي، بيد أنها قالت لي: (لو ألقيت بطفليك سأغضب عليك إلى يوم الدين، وهو ما جعلني أنقذ الصغيرين، ثم جرف السيل والدتي وزوجتي، وبعد أن تأكدت من فقد أمي وزوجتي حرصت على المحافظة على أبنائي، فحملت أبنائي وعشت ساعات عصيبة، كدت أن أفقد أبنائي فيها مرات عديدة).

يوم عرفة صار يوم عزاء

يقول أحد سكان الحرازات: حجزني السيل عند إحدى محطات الوقود، وتوقفت إجباريا وشاهدت مناظر مأساوية، فإذا بست سيارات معظمها تحمل أسرا تدفعهم السيول حتى اختفوا عن الأنظار، وتواصل السيول جرف السيارات، ورعبت أكثر وأنا أراها تجرف سيارة من النوع الثقيل، حيث كانت السيول تدفعها بقوة ولساني لا يكف عن الدعاء، وحاولت مرارا الاتصال على أهلي، تارة لأطمئن عليهم، وتارة أخرى لأطمئنهم عني، ولكن في كل محاولة يتعذر الاتصال ولم أستطع الوصول إلى أسرتي إلا بعد ١٢ ساعة تقريبا، وهناك زادت مفاجأتي ومعاناتي عندما علمت أن أسرة من سبعة أشخاص جيران لأخي جرفتهم السيول، وأقيم أول أيام العزاء في يوم عرفة.

تمحيص وتذكير

في المحن والكوارث تمحيص للقلوب ، وتنبيهٌ لها من غفلتها، فلولا محن الدنيا ومصائبها لأصاب العبد من أدواء الكبر، والعجب، وقسوة القلب ما يكون سببا لهلاكه عاجلا وآجلا، فمن رحمة أرحم الراحمين أن يبتليه بأنواع من أدوية المصائب تكون حمية له من هذه الأدواء، وحفظا لصحة عبوديته، واستفراغاً للمواد الفاسدة الرديئة المهلكة منه، فسبحان من يرحم ببلائه، ويبتلي بنعمائه.

وكما قال ابن تيمية رحمه الله: (مصيبة تقبل بها على الله، خير لك من نعمة تنسيك ذكر الله)[١].

وقال الحسن البصري رحمه الله : (لا تكرهوا البلايا الواقعة، والنقمات الحادثة، فَلَرُبَّ أمرٍ تكرهه فيه نجاتك، ولَرُبَّ أمرٍ تؤثره فيه عطبك)[٢]. أي:هلاكك.

وقال الفضل بن سهل رحمه الله: (إن في العلل لنعَماً لا ينبغي للعاقل أن يجهلها، فهي تمحيص للذنوب، وتعرّض لثواب الصبر، وإيقاظ من الغفلة، وتذكير بالنعمة في حال الصحة، واستدعاء للتوبة، وحضّ على الصدقة)[٣].

التوبة والاستغفار والبعد عن المعاصي

فقد يترتب على معصية الفرد الواحد، مصائب عامة لا تختص به وحده.

---

(١) تسلية أهل المصائب (١٧٥).
(٢) شفاء العليل (٣٤).
(٣) الفرج بعد الشدة (٢٢).

الحرص على عدم إيذاء المصابين

فلا يتسبب الإنسان بجمع مصيبتين على هؤلاء، كمن يلوم المصابين ويوبخهم بأنهم أخطأوا فسكنوا في هذا المكان، أو يجزم بأن هذه المصيبة أصابتهم بسبب ذنوبهم، وقد يكون فيهم من الصالحين وغير المكلفين.

ولذا فإن نفوس الناس تحتاج إلى مراعاة، وليت شعري ماذا يجول في نفوس أولئك الأقارب الذين يجتمعون يوميا عند الحفر الكبيرة، والمستنقعات العميقة، ينتظرون العثور على جثة أحد أقربائهم؟!.

تخيَّل نفسك داخل الحدث

العاقل من يأخذ العظة والعبرة مما يقع على غيره، فينظر في المصائب، ويتخيل نفسه فيها، فيحمد ربه على السلامة والنجاة، ويحصل له ما يعينه على حسن الاستعداد والتهيؤ النفسي والمادي، فإذا وقعت عليه مصيبة مشابهة أمكنه الاستفادة مما تهيأ، وكان له خبرة في التعامل معها.

كان سيف بن هارون قد احتفر في داره أو بيته قبرا، فكان يدخل فيه كل يوم قليلا، ثم يقول : أهيلوا علي التراب، ثم يصيح : أرجعوني لعلي أعمل صالحا فيما تركت[1].

والسعيد من أُمهل فلم يهمل، وسارع بالجد قبل فوات الأوان

فتذكر يا عبد الله واتعظ وأنت في المهلة قبل النقلة، وأنت في دار العمل قبل أن تصير إلى دار الجزاء.

---

(١) الكامل لابن عدي (٣/ ٤٣٠).

عن إبراهيم التيمي قال : مثّلت نفسي في النار أعالج أغلالها وسعيرها، وآكل من زقومها، وأشرب من زمهريرها، فقلت يا نفس ايش تشتهين؟ قالت أرجع إلى الدنيا فأعمل عملا أنجو به من هذا العقاب.

ومثلت نفسي في الجنة مع حورها، وألبس من سندسها وإستبرقها وحريرها، قلت : يا نفس ايش تشتهين ؟ قال: فقالت : أرجع إلى الدنيا فاعمل عملا ازداد فيه من هذا الثواب، قلت : فأنت في الدنيا وفي الأمنية[1].

تعلم ما يعين في أوقات الأزمات

من صفات الأزمات والكوارث أنها مفاجئة، وقد تأتي على أقوام ليس لهم بها عادة، وهناك قدر من الاستعدادات التي تفيد الإنسان في حياته فيما يعرض له من مصائب وكوارث، فعلى الإنسان أن يحرص على تعلمها، ويعلمها لأهله، ولمن تحت يده، ومن ذلك:

تعلم مهارات الإسعافات الأولية، ومهارة السباحة، وطرق التعامل مع السيول والحرائق ونحوها، وأسس الاستغاثات، وطرق إنقاذ الآخرين.

ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا

ولا شك أن أجر إنقاذ المسلم من الغرق عظيم، فهو إحياء للنفس البشرية من الهلاك كما قال تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ ﴾[المائدة:٣٢].

(١) رواه أحمد في الزهد (٣٦٣).

﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا ﴾ أي: اهتم باستنقاذها والذب عنها من الهلاك، فكأنما أحيا الناس جميعا.

قال مجاهد رحمه الله: ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا ﴾ أي : أنجاها من غَرق أو حَرق أو هَلكة[١].

إخلاء بالطائرة

يقول أحد المتضررين:

بقيت محاصراً ١٧ ساعة من الصباح إلى المساء، وتم إخلائي بطائرة هيلوكبتر، ولديّ طفلتان ورضيع، ومع بدايات نزول المطر أخليتهم مع زوجتي وصعدنا السطح، وكان ارتفاع السيول التي غطت بيوتنا ثلاثة أمتار ونصف، وبقينا هناك بلا طعام ولا شراب حتى قدوم الإنقاذ.

لا حياة لمن تنادي

يقول أحد سكان شارع حراء: خرج أخي من منزله عندما سمع ما حصل في المنطقة المنكوبة، وجاء إلى هنا ليطمئن على مسجدٍ كان يبنيه، وبعدها لم نسمع عنه شيئاً، ويضيف بحسرة: أنتظر هنا مع ابن أخي المفقود منذ اليوم الأول، واليوم أكملنا سبعة أيام ننتظر أي خبر يريحنا، لكننا لم نسمع شيئاً بعد.

إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا عَسَلَهُ

رجل من باكستان يبلغ من العمر ٢٧ عاما أنقذ ١٤ نفسا واحدا تلو الآخر حتى أصيب بعمود في ساقه، فأدركه الغرق بسبب هذه الإصابة.

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٩٣).

عن أبي عِنَبة الخولاني قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِعَبْدٍ خَيْرًا عَسَلَهُ**».

قيل: وما عسله؟

قال: « **يَفْتَحِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ عَمَلًا صَالِحًا قَبْلَ مَوْتِهِ، ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ**»[١].

فشبه ما رزقه الله من العمل الصالح قبل الموت بالعسل، الذي هو الطعام الصالح الذي يحلو به كل شيء.

فهذا رجل استنار صدره بنور الإيمان، وأدركته خشية الله، وعظمت مساويه عنده فاستقام أمره فعمل صالحا قليلا، فأُعطى جزاء جزيلا، فضلا من الله ورحمة.

وبعض العمال الذين كانوا مصدرا للسخرية والاحتقار والتندر عند بعض الناس -هداهم الله- كانوا سببا في إنقاذ عدد من النفوس، لاسيما بعض العُمال الذين تكثر في بلادهم السيول والفيضانات.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **لَا يَجْزِي وَلَدٌ وَالِدًا إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ** »[٢].

فكيف يكون جزاء من يعرض نفسه للتلف والهلكة لا ليعتق أخاه وشقيقه، ولكن لينقذ مسلما – لعله لا يعرفه مطلقا – من الموت المحقق ؟!

فرحة لم تتم

قالت إحدى المتضررات: فرحت وأطفالي بالمطر، وما هي إلا ثوان حتى اجتاحنا سيل عارم دخل إلى المنزل، ولم نستطع الصمود أمامه، فصعدنا للسطح،

---

(١) رواه أحمد (١٧٣٣٠) وصححه الألباني.
(٢) رواه مسلم (١٥١٠).

وتحملنا هطول المطر الشديد على النزول والغرق داخل المنزل، وما زلت وأطفالي نعيش إلى اليوم حالة رعب وخوف من هطول أمطار أخرى.

نجونا بفضل الله

ويقول متضرر آخر: أسكن مع أسرتي في منزل جنوب بحرة المجاهدين، وعندما اشتد المطر، وسالت الأودية، دخلت المياه المتدفقة إلى دارنا من كل ناحية، استغثت بالجيران الذين هبوا لإنقاذنا، وأخرجونا إلى بر الأمان، قبل أن نُنْقَل بواسطة الدفاع المدني إلى شقة إيواء في كيلو ١١.

الكارثة تكشف

- الكارثة كشفت قلة أمانة بعض المقاولين، وضعف خبرة بعض المهندسين.
- الرخص المزيفة الخاصة بالمباني، وسلامة تجهيزاتها المستخرجة بالمعارف، والواسطة.
- ظهور عورات الأنظمة البشرية، وضعف الإمكانات المادية، وأن قوة البشر مهما بلغت فلا تقف أمام قوة الله جل وعلا.

تقديم ما يمكن من صور المواساة والتعزية والتصبير

وهذا أمر متيسر من خلال وسائل الاتصال والتقنية الحديثة من هواتف، وشبكة معلوماتية، ومن هذه الإعانات عن بُعد :

- فتح منتديات مخصصة للمشاركة بالأفكار، والمقترحات، والتجارب؛ لتجاوز هذه الأزمة.
- مشاركة أصحاب الخبرة لاسيما أصحاب التخصصات العلمية ذات الصلة

فيما هو موجود من منتديات، أو مجموعات على المواقع الشعبية كالفيس بوك وغيره.

- نقل بعض التجارب الناجحة في كيفية التعامل مع أخطار السيول، وترجمة بعض ما هو موجود بلغات أجنبية من هذه التوجيهات.
- إعداد برامج تأهيل نفسية للمصابين تجمع بين التوجيهات الشرعية، والتجارب الإنسانية في هذا المجال، وابتكار أفكار للمواساة، وإكمال بعض الأفكار وتسديدها.

أحكام شرعية متعلقة بالكارثة

ومن الأمور المهمة التي تتعلق بهذه الكارثة: الوقوف على بعض الأحكام الشرعية المتعلقة بهذه الجائحة.

والجائحة في اللغة : الشدة والنازلة العظيمة التي تجتاح المال(١).

وأما عند الفقهاء: فالجوائح والآفات والكوارث هي الأشياء المفسدة لما أصابته، مما لاَ صُنْعَ للإنسان فيه .

وتشمل كل شيء لا يُستطاع دفعه، كالأمطار والسيول المدمرة، والصواعق المحرقة، والبرد والحر، وريح السموم، والثلج، والجراد، والحريق العام، والقحط، ونحو ذلك.

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: (الجائحة: هي الآفات السماوية التي لا يمكن معها تضمين أحد، مثل: الريح، والبرد، والحر، والمطر، والجليد، والصاعقة، ونحو ذلك)(٢).

وقال أيضا: (وهذا الأصل متفق عليه بين المسلمين ليس فيه نزاع، وهو من الأحكام التي يجب اتفاق الأمم والملل فيها في الجملة؛ فإن مبنى ذلك على العدل والقسط الذي تقوم به السماء والأرض، وبه أنزل الله الكتب وأرسل الرسل كما قال تعالى ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الحديد:٢٥].

---

(١) لسان العرب (٢/ ٤٣١)، مادة: جوح.
(٢) مجموع الفتاوى (٣٠/ ٢٧٨).

وذلك أن المعاوضة كالمبايعة والمؤاجرة مبناها على المعادلة والمساواة من الجانبين، لم يبذل أحدهما ما بذله إلا ليحصل له ما طلبه، فكل منهما آخذ معط، طالب مطلوب، فإذا تلف المقصود بالعقد المعقود عليه قبل التمكن من قبضه، لم يجب على المُؤَجِّرِ أو المشتري أداء الأجرة أو الثمن[1].

ومن الأحكام الشرعية المتعلقة بهذه الكارثة والفاجعة، ما يلي:

- من أُصيب بفقد عزيز من إنسان أو غيره في هذه الحادثة، يجب عليه أمور عدة، من أهمها ما يلي:

١ ـ الرضا بقضاء الله وعدم الجَزَع والسخط على ما وقع، فمن أصول الإيمان الإيمان بالقدر خيره وشره.

وقال تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ٥١].

٢ ـ عدم اليأس من رحمة الله في تعويض ما فقد، مهما كانت فَداحة هذا الخَطْب، والله يقول: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧]، فإذا استشعر العبد ذلك غرس في نفسه الأمل، وابتعد عن اليأس والقنوط.

- **إنقاذ الغريق من الواجبات:**

اتفق الفقهاء على وجوب إعانة المضطر بإعطائه ما يحفظ عليه حياته، وكذلك بإنقاذه من كل ما يعرضه للهلاك من غرق، أو حرق.

فإن كان قادرا على ذلك دون غيره وجبت الإعانة عليه وجوبا عينيا، وإن كان ثَمَّ غيره كان ذلك واجبا كفائيا على القادرين، فإن قام به من يكفي سقط عن الباقين

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٠/ ٢٦٦).

وإلا أثموا جميعا.

(فمن أمكنه إنقاذ شخص من الهلاك كمن كان معه طعام، وكان غيره مضطرا إليه، فالواجب عليه بذله له، وكذلك من وجد أعمى كاد أن يتردى في بئر، أو وجد إنسانا كاد أن يغرق، فإن الواجب عليه إنقاذه متى كان قادرا على ذلك، حتى لو كان في صلاة وجب قطعها لإنقاذ غيره من الهلاك)[١].

فإن امتنع الإنسان من إنقاذ الغريق مع قدرته ففي تضمينه خلاف بين العلماء.

فقيل: لا يضمن ، وهو مذهب الشافعية والحنابلة.

قال في كشاف القناع: (ومن أمكنه إنجاء آدمي أو غيره كحيوان محترم من هلكة كماء أو نار أو سبع فلم يفعل حتى هلك، لم يضمن، لأنه لم يتسبب إلى هلاكه)[٢].

وقال القاضي : (كل من رأى إنسانا في مهلكة، فلم ينجه منها مع قدرته على ذلك، لم يلزمه ضمانه وقد أساء)[٣].

وقيل: يضمن، وهو مذهب المالكية

قال في مِنَح الجليل:(ويضمن بسبب ترك مواساة وجبت عليه لغيره، ولو بخيط[٤].

وقال ابن عثيمين رحمه الله: (لو شاهدت إنساناً غريقاً بالماء، وهو يشير أنقذني يا رجل، أنقذني، وتركتَه حتى غرق، فهل تضمن أو لا؟

المذهب: لا يضمن، والصحيح أنه يضمن لو كان قادراً على إنقاذه، أما لو كان

(١) الموسوعة الفقهية الكويتية (٣٢/ ٣٥١).
(٢) كشاف القناع (٢٠ / ٢٢٥).
(٣) المغني (٩/ ٥٨١).
(٤) منح الجليل (٥ / ١٤٧).

عاجزاً فإنه لا يضمن)[١].

ولذا يجب قطع الصلاة ولو كانت فريضة؛ لإغاثة الغريق إذا قدر على ذلك.

- تسقط في مثل هذه الكوارث عدد من المحرمات، كلمس المرأة الأجنبية للضرورة، وإنقاذ حياتها، مع مراعاة الحرمات، وستر العورات، للأحياء والأموات، من النساء وغيرهم.
- الغريق يغسل إن أمكن تغسيله، ويكفن، ويصلى عليه، كسائر الأموات.
- إذا اختلط الموتى في السيل فلم يميز المسلم من الكافر فكيف يصلى عليهم؟ قال ابن قدامة رحمه الله :(فإن اختلط موتى المسلمين بموتى المشركين، فلم يميزوا، صلى على جميعهم ينوي المسلمين)[٢].
- المفقود: هو من انقطع خبره، ولم تُعلم حياته من مماته، يُتربص به مدة بحيث يغلب على الظن رجوعه لو كان حياً، ثم يحكم بموته بعد انتهائها إذا لم يظهر له أثر، وإذا تمت مدة التربص تبتدئ الأحكام المترتبة على الوفاة من ابتداء عدة الوفاة، وأحكام الميراث.
- كل ما فُقد من جراء هذه السيول من الممتلكات فإنه يجري عليه شرعا حكم اللقطة، سواء كان من الممتلكات التي ضاعت من أصحابها، كالهواتف النقالة –الجوالات–،أو الساعات، أو شيئا تركوه عمدا لعدم قدرتهم على الجمع بين حمله والنجاة بأنفسهم، وكذلك السيارات والمعدات الثقيلة التي جرفها السيل، والحيوانات والبهائم، ونحو ذلك، فهذه تأخذ حكم اللقطة، فالشيء اليسير الذي لا تتبعه همة أوساط الناس، كالقلم الرخيص، والمبلغ اليسير،

---

(١) الشرح الممتع (١٥ / ٤٣).
(٢) المغني (٢/ ٤٠٤).

فهذا يملكه من وجده، ولا يحتاج إلى تعريف، وما عدا ذلك من الأموال مما تتبعه همة أوساط الناس فيجب على من وجدها أن يحفظها، ويقوم بتعريفها في الأسواق، ومجامع الناس، والجرائد، سنة كاملة، فإن لم يأت صاحبها فهي ملك له، بشرط أن يضمنها لصاحبها متى جاء.

- إذا كان الرجل يسير في الطريق مسافرا، فوجد مبلغا من النقود ولم يجد لها أحدا، فماذا يعمل بها؟

الجواب : يلزمه المناداة عنها في مجامع الناس في البلدين الواقعين على الطريق الذي وجد النقود فيه، وفي غيرهما مما هو مظنة أن تكون لأحد سكانها، فإن مضى عام دون حصوله على صاحبها ملكها، وله أن يبقيها عنده حتى يجد صاحبها، أو أن يتصدق بها عنه، فإن وجده بعد ذلك أخبره بما صنع، فإن أجاز تصرفه بالصدقة بها فبها ونعمت، وإن اعترض على ذلك ضمنها له وكانت له الصدقة، أو ينفقها كسائر ماله، ويضمنها لصاحبها متى عرفه[١].

- يمكن مع كثرة هذه المفقودات أن تنشأ عنها فكرة إنشاء مستودعات عامة، تستقبل هذه المفقودات لتقوم بإعادتها إلى أصحابها وفق الرؤية الشرعية.
- طين الشوارع إذا لم يظهر به أثر النجاسة فهو طاهر، وإن تيقنت النجاسة عُفِي عن يسيره.
- الوحل مع وجود المشقة عذر يبيح الجمع بين الظهر والعصر، والمغرب والعشاء.

---

(١) فتاوى اللجنة الدائمة (١٥ / ٤٤٢).

- **باقي قسط الإجارة في البيوت المهدومة:**

اتفق الفقهاء على أنه إن تلفت العين المستأجرة انفسخت الإجارة، وعلى المستأجر أجرة ما سبق من المدة فقط، ويعاد له ما زاد عن ذلك إن كان قد دفع الأجرة مقدما، وكذلك الحكم إذا تعطل الانتفاع بالعين المستأجرة.

- **حكم ضمان السيارة التي أخذت بعقد الإجارة المنتهي بالتمليك ؟.**

عقد الإجارة المنتهي بالتمليك، له صور، منها الجائز، ومنها الممنوع، ومن الصور الجائزة أن يكون هناك عقدان مستقلان، عقد الإجارة، مع وعد بالتمليك، ولا يتم التمليك إلا بعقد بيع مستقل بعد انتهاء عقد الإجارة، ويكون لكل من الطرفين حرية الاختيار في إنشاء هذا العقد، أو عدم إنشائه .

وبناء على ذلك: إذا تلفت العين المؤجرة أثناء المدة بغير تعد ولا تقصير من المستأجر فإنه يحق للمستأجر فسخ العقد، وتسقط الأجرة فيما بقي من المدة، ويكون ضمان التلف على المؤجر.

وهذه الحادثة تؤكد على ما حذر منه العلماء شركات السيارات من ضرورة التفريق بين عقد الإجارة وعقد البيع، وعدم الخلط بينهما. وبعد هذه السيول ستبدأ النزاعات بين المستأجر وشركات التأجير المنتهي بالتمليك حول ضمان السيارة، ومن سيأخذ التعويض.

يقول أحدهم : اشتريت سيارة بنظام الإيجار المنتهي بالتمليك، ولكن قيمة التعويض ستذهب للشركة وأنا لا أحصل على شيء، رغم أني دفعت أكثر من ٨٠٪ من قيمة السيارة حيث لم يتبق إلا أقل من سنة على العقد ودون دفعة أخيرة، وأنا الذي دفعت قيمة التأمين، فكيف أحرم من التأمين... !!

- **الكذب والخداع لأخذ التعويضات من أكل المال بالباطل**، فمن لم يصبه ضرر من هذه الأمطار، فلا حق له في الإعانة، ودعواه الضرر مع عدم حصوله كذب، وعلامة من علامات النفاق، وأكل للمال بالباطل.
- يأثم من يدخر شيئا من الأقوات الضرورية لنفسه أو لعياله في حال الضرورة، وحاجة المسلمين لها[١].
- **إذا وجد من الباعة وأصحاب الحرف استغلال لحاجة الناس**، ففي هذه الحال يتدخل ولي الأمر، ويلزمهم بسعر المثل حماية للناس من جشع التجار واستغلالهم.

قال ابن تيمية رحمه الله:(ما احتاج إلى بيعه وشرائه عموم الناس؛ فإنه يجب ألا يباع إلا بثمن المثل، إذا كانت الحاجة إلى بيعه وشرائه عامة)[٢].

وقال ابن القيم رحمه الله: (إذا امتنع أرباب السلع من بيعها مع ضرورة الناس إليها إلا بزيادة على القيمة المعروفة ، فهنا يجب عليهم بيعها بقيمة المثل، والتسعير هاهنا إلزام بالعدل الذي ألزمهم الله به، فالتسعير في مثل هذا واجب بلا نزاع، وحقيقته إلزام بالعدل ومنع من الظلم)[٣].

- **هلاك المبيع بسبب الكوارث البيئية ؟**

إذا هلك المبيع أو تلف بسبب كارثة بيئية، فله صورتان :

الأولى : أن يكون الهلاك والتلف قبل قبضه، كأن يشتري سيارة، أو بيتا، أو جهازا كهربائياً، ففي هذه الحال ينفسخ البيع ويكون ضمان التالف على البائع،

---

(١) الموسوعة الفقهية الكويتية (٢/ ٣٥١).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٧٩).

(٣) الطرق الحكمية (١/ ٣٥٦).

ويلزمه أن يرد للمشتري الثمن الذي أخذه منه عند جمهور الفقهاء. [خالف الحنابلة في غير المكيل والموزون فجعلوه من ضمان المشتري][١].

ولكن إذا مكنه من القبض ولم يقبض ؟

قال ابن تيمية رحمه الله: (البائع إذا مكن المشتري من القبض فقد قضى ما عليه، وإنما المشتري هو المفرط بترك القبض، فيكون الضمان عليه، بخلاف ما إذا لم يمكنه من القبض، بأن لا يوفيه التوفية المستحقة، فلا يكيله ولا يزنه ولا يعده، فإنه هاهنا بمنزلة من لم يوفه إياه من الدين، وإذا لم يفعل البائع ما يجب عليه من التوفية كان هو المفرط، فكان الضمان عليه، إذ التفريط يناسب الضمان)[٢].

وإذا كان التلف والهلاك قد أصاب بعض المبيع ؟

(فإن هلك بعض المبيع بآفة سماوية، وترتب على الهلاك نقصان المقدار، فإنه يسقط من الثمن بحسب القدر التالف، ويخير المشتري بين أخذ الباقي بحصته من الثمن، أو فسخ البيع هذا عند الحنفية والحنابلة)[٣].

الثانية : أن يكون الهلاك والتلف بعد قبض المشتري للسلعة وحيازتها.

ففي هذه الحال تكون من ضمان المشتري ولا يلزم البائع شيء؛ لأن المبيع قد خرج من عهدته بتسليمه للمشتري.

(وإذا قبض المشتري المبيع وهلك بيده لا ينفسخ العقد ؛ لأن الهالك ملك المشتري، والمالك هو الذي يتحمل تبعة الهالك كما هو معروف، وهذا متفق عليه بين الفقهاء)[٤]. وكذلك الحال لو كان التلف لبعض المبيع.

---

(١) بدائع الصنائع (٥/ ٢٣٨)، روضة الطالبين (٣/ ٤٩٩)، كشاف القناع (٣/ ٢٤٤).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٩ / ٤٠٢).
(٣) الموسوعة الفقهية الكويتية (٩ / ٣٥).
(٤) الموسوعة الفقهية الكويتية (٧ / ٢٨).

- **هلاك المحصول الزراعي بالكوارث البيئية؟.**

إذا تلفت الثمرة بعد أن بيعت بآفة سماوية مثل حر شديد أفسد الثمر، أو بَرَدٍ أسقط الثمر، أو جرادٍ أكلها، أو سيول أفسدتها – قبل التمكن من الجذاذ – ففي هذه الحال يرجع المشتري على البائع بكل الثمن الذي دفعه له.

ويدل على ذلك قوله ﷺ : «**لَوْ بعْتَ مِنْ أَخِيكَ ثَمَرًا، فَأَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ، فَلَا يَحِلُّ لَكَ أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُ شَيْئًا، بِمَ تَأْخُذُ مَالَ أَخِيكَ بِغَيْرِ حَقٍّ!!**» ، رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه وفي لفظ : أن النبي ﷺ أمر بوضع الجوائح.[1]

- **تلف وهلاك العين المستأجرة بالكوارث الطبيعية ؟.**

كمن استأجر بيتا فدمره السيل، أو غمره الماء وتعطل الانتفاع به، كما حصل مع بعضهم حيث استأجر قاعة لحفل الزواج فدمرها السيل قبل الموعد بأيام، فما حكم الإجارة والمال المدفوع؟ (اتفق الفقهاء على أنه إن تلفت العين المستأجرة انفسخت الإجارة)[2].

قال ابن تيمية رحمه الله : (لا نزاع بين الأئمة أن منافع الإجارة إذا تعطلت قبل التمكن من استيفائها سقطت الأجرة)[3].

فإن كان التلف قبل القبض فينفسخ العقد من أصله ويسقط الأجر.

وإن تلفت العين المستأجرة بعد مضي شيء من المدة، فإن الإجارة تنفسخ فيما بقي من المدة، دون ما مضى، ويكون للمؤجر من الأجر بقدر ما استوفى من المنفعة أو بقدر ما مضى من المدة.

---

(١) رواه مسلم (١٥٤٤).

(٢) الموسوعة الفقهية الكويتية (٧/ ٢٦).

(٣) مجموع الفتاوى(٣٠ / ٢٨٨).

وليس على المستأجر شيء؛ لأن يده على العين المؤجرة يد أمانة، وقد تلفت بغير تعد منه ولا تفريط فلا ضمان عليه .

وكذلك إذا وقع على العين ما يمنع نفعها بالكلية، كما لو أصبحت الدار المستأجرة غير صالحة للسكنى .

قال المرداوي رحمه الله: (لو حدث خوف عام يمنع من سكنى المكان الذي فيه العين المستأجرة، أو حصر البلد، فامتنع خروج المستأجر إلى الأرض، ثبت له خيار الفسخ، قال الخرقي رحمه الله: وإذا جاء أمر غالب يحجز المستأجر عن منفعة ما وقع عليه العقد، فعليه من الأجرة بقدر مدة انتفاعه)[١].

(اتفق الفقهاء على أن العين المؤجرة أمانة في يد المستأجر، فإن تلفت أو ضاعت بغير تعد منه، ولا تفريط ، فلا ضمان عليه).

أما إذا تعدى أو فرط في المحافظة عليها فإنه يكون ضامنا لما يلحق العين من تلف أو نقصان، وكذلك الحكم إذا تجاوز في الانتفاع بها حقه فيه فتلفت عند ذلك[٢].

- **ما يتلف تحت يد الأجير الخاص**

كمن كان موظفا لدى شركة أو مؤسسة، وتحت يده شيء من ممتلكاتها كسيارة ونحوها، فتلفت في هذه السيول فلا ضمان عليه؛ (لأن الأجير الخاص أمين، فلا ضمان عليه فيما تلف في يده من مال، أو ما تلف بعمله إلا بالتعدي أو التفريط)[٣].

---

(١) الإنصاف (٩ / ٤٥٤).
(٢) الموسوعة الفقهية الكويتية (١٣ / ٢٧٧).
(٣) الموسوعة الفقهية الكويتية (١٣ / ٢٧٧).

- **ما يتلف عند الأجير المشترك**

كأصحاب المحلات التي فيها ممتلكات لآخرين لإصلاحها أو غير ذلك: كورش الصيانة، ومحلات الخياطة، ومغاسل الألبسة، فهؤلاء ومن في حكمهم يسمون بـ (الأجير المشترك)، والأصل عند كثير من الفقهاء ضمان ما تلف تحت أيديهم.

وذهب أبو يوسف ومحمد بن الحسن رحمهما الله إلى أنه مضمون عليه بالتلف، إلا في حرق غالب، أو غرق غالب[١].

لأن هؤلاء الأُجراء لو علموا أنهم لا يضمنون؛ لهلكت أموال الناس؛ لأنهم لا يعجزون عن دعوى الهلاك، وهذا المعنى لا يوجد في الحريق الغالب، والغرق الغالب.

- **تلف الأمانات والودائع؟.**

في غمرة السيول وتلف كثير من الممتلكات، قد تكون بعض هذه الممتلكات ودائع وأمانات لأناس آخرين، فهل نلزمهم بضمان ما تلف في السيل من ودائع؟.

(الأصل في عقود الأمانات كالوديعة أن ما تلف فيها من الأعيان يكون تلفه على صاحبه، وليس على من كانت في يده شيء، إن لم يتعد أو يفرط فيها)[٢].

وبناء على ذلك فمن كان عنده أمانة لغيره فتلفت في هذا السيل، وكان قد وضعها في حرز مثلها عادةً، ولم يفرط في ذلك، فلا ضمان عليه.

قال ابن المنذر رحمه الله: (أجمع أكثر أهل العلم على أن المودَع إذا أحرز الوديعة

---

(١) الموسوعة الفقهية الكويتية (١٣ / ٢٧٨).
(٢) الموسوعة الفقهية الكويتية (١٣/ ٢٧٩).

ثم تلفت من غير جنايته ألا ضمان عليه)[١].

وقال ابن قدامة رحمه الله: (الوديعة أمانة، فإذا تلفت بغير تفريط من المودَع فليس عليه ضمان، سواء ذهب معها شيء من مال المودَع أو لم يذهب)[٢].

- **ضمان العارية .**

إذا تلفت العارية في يد المستعير بغير تعد منه ولا تفريط، ففي ضمانها خلاف بين الفقهاء.

وأقرب الأقوال أن المستعير لا يضمن إذا لم يكن منه تعدٍّ أوتفريط، كما لو حصل التلف بآفة سماوية وجائحة لا دخل للآدمي فيها، كالسيول والزلازل ونحوها.

وهذا مذهب الحنفية، والظاهرية، وبعض الحنابلة، واختاره العلامة ابن القيم، وابن عثيمين؛ لأن العارية أمانة، ولأنها قبضت بإذن صاحبها، فلا تضمن إلا بالتعدي أو التفريط.

قال ابن عثيمين رحمه الله: (العارية لا تضمن إلا بتعدٍّ أو تفريط، بمعنى أن الإنسان لو استعار الكتاب ووضعه في بيته في مكان محرز، وجاء سارق فسرقه، أو نزل عليه مطر فأفسده، أو احترق المكان فاحترق الكتاب، فإنه غير ضامن؛ لأنه ليس متعدياً ولا مفرطاً، وهذا القول هو الراجح)[٣].

(وعند الشافعية والحنابلة يضمن المستعير هلاك الشيء المعار، ولو كان الهلاك بآفة سماوية، أو أتلفها هو أو غيره ولو بلا تقصير)[٤].

---

(١) الإشراف (١/ ٢٥١).
(٢) المغني (٧/ ٢٨٠).
(٣) الشرح الممتع (٩/ ٥٧).
(٤) الموسوعة الفقهية الكويتية (٥/ ١٨٩)

- **تلف رأس مال المضاربة ؟.**

(لا خلاف بين الفقهاء في أن ما تلف من مال المضاربة يكون تلفه على رب المال، ولا يضمنه المضارَب، فهو في يده بمنزلة الوديعة.

إلا أن المضارَب يصير ضامنا لرأس المال إذا تلف بسبب مخالفة شرط رب المال، كأن شرط رب المال ألا يسافر به في البحر فسافر فغرق المال، فإن المضارَب حينئذ ضامن له؛ لمخالفته شرط رب المال فصار بمنزلة الغاصب)(١).

- **العقود المستمرة :**

وهي التي يستغرق تنفيذها مدة من الزمن، وتمتد بامتداد الزمن حسب الشروط المتفق عليها بين الطرفين، والتي تقتضيها طبيعة هذه العقود، كالإجارة والإعارة والوكالة وأمثالها.

وهذا النوع من العقود ينفسخ بتلف المعقود عليه، سواء أكان قبل القبض أم بعده، وهذا متفق عليه بين الفقهاء في الجملة(٢).

- **أثر الجائحة على المال المغصوب.**

قد يغصب شخص من إنسان شيئاً كسيارة أو بيت، ثم يتلف هذا المغصوب بسبب الجائحة والسيل، فماذا يجب على الغاصب ؟

لا خلاف بين الفقهاء في أن على الغاصب رد المغصوب، ويلزمه ضمانه بالتلف أو الإتلاف لقوله ﷺ : «**عَلَى الْيَدِ مَا أَخَذَتْ حَتَّى تُؤَدِّيَهُ**»(٣).

فيد الغاصب يد ضمان، ويلزمه أن يرد مثل المغصوب، أو قيمته إن تعذر رد

---

(١) الموسوعة الفقهية الكويتية (١٣ / ٢٧٩).
(٢) الموسوعة الفقهية الكويتية (٧ / ٢٩).
(٣) رواه ابن ماجه (٢٤٠٠) وصححه ابن الملقن والذهبي.

المثل. فليس للجائحة أثر على ضمان الغاصب، فهو ضامن على كل حال لأنه متعد، وكما قال ابْنُ جُزَيٍّ المالكي:(الغاصب ضامن لما غصبه، سواء تلف بأمر الله، أو من مخلوق)[1].

- **الجوائح ومال الزكاة ؟.**

من كان مالكا للنصاب الشرعي للزكاة، ثم أصابت ماله جائحة ذهبت به، فهل يلزمه إخراج الزكاة عما كان معه من مال؟.

لهذه المسألة ثلاث صور:

١- إذا كان التلف قبل حولان الحول، فقد سقطت الزكاة.

٢- وأما إن كان التلف حصل بعد الحول والتمكن من إخراجها، وفرط وقصر في إخراجها، ففي هذه الحال تكون الزكاة قد استقرت في ذمتة، ويجب عليه إخراجها.

وفي فتاوى اللجنة الدائمة : « يجب عليك إخراج زكاة للفقراء بدلا من الزكاة التي تلفت في النهر؛ لأنها لم تصل إلى مستحقيها»[2].

٣- وأما إن كان التلف حصل بعد الحول والتمكن من إخراجها، ولكنه لم يخرجها لعذر، ففي ضمانه خلاف بين العلماء .

قال ابن قدامة رحمه الله: والصحيح إن شاء الله أن الزكاة تسقط بتلف المال إذا لم يفرط في الأداء؛ لأنها تجب على سبيل المواساة، فلا تجب على وجه يجب أداؤها مع عدم المال وفقر من تجب عليه.

---

(١) القوانين الفقهية (٣٦٢).
(٢) فتاوى اللجنة الدائمة (٩ / ٤٠٨).

ومعنى التفريط أن يتمكن من إخراجها فلا يخرجها، وإن لم يتمكن من إخراجها فليس بمفرط، سواء كان ذلك لعدم المستحق، أو لبعد المال عنه»[١].

قال ابن عثيمين رحمه الله: (إن لم يتعد ولم يفرط فلا ضمان؛ لأن الزكاة بعد وجوبها أمانة عنده، والأمين إذا لم يتعد ولم يفرط فلا ضمان عليه)[٢].

- يجوز أن يُعطى من مال الزكاة الذين تضرروا من السيول والعواصف، فخربت بيوتهم، وتلفت مزارعهم، ولم يعد لهم شيء؛ لأن هؤلاء يعتبرون من الغارمين، وهم أحد مصارف الزكاة الثمانية المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [التوبة:٦٠]، قال القرطبي: (والغارمون: هم الذين ركبهم الدين ولا مال عندهم)[٣].

ويُعتبر من أصابتهم الكوارث من هذا الصنف، وهم الذين فاجأتهم كوارث الحياة، ونزلت بهم جوائح اجتاحت مالهم، واضطرتهم إلى الاستدانة لأنفسهم وأهليهم.

فعن مجاهد قال : ثلاثة من الغارمين : رجل ذهب السيل بماله، ورجل أصابه حريق فذهب بماله، ورجل له عيال وليس له مال، فهو يَدَّانُ وينفق على عياله [٤].

---

(١) المغني (٢/ ٥٣٩).
(٢) الشرح الممتع (٦/ ٤٥).
(٣) تفسير القرطبي (٥/ ١٨٣).
(٤) مصنف ابن ابي شيبة (٣/ ٢٠٧).

ويدل على ذلك حديث قبيصة بن مخارق الهلالي رضي الله عنه قال: تَحَمَّلْتُ حمالة فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله فيها فقال: «**أَقِمْ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا، قال: ثم قال: يَا قَبِيصَةُ إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدِ ثَلَاثَةٍ: رَجُلٍ تَحَمَّلَ حَمَالَةً فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا ثُمَّ يُمْسِكُ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ أَوْ قَالَ: سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّى يَقُومَ ثَلَاثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قَوْمِهِ لَقَدْ أَصَابَتْ فُلَانًا فَاقَةٌ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ أَوْ قَالَ: سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ، فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ سُحْتًا يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا**»[1].

- يجوز تعجيل الزكاة وحسابها بالتقدير والاجتهاد من أجل حاجة الناس في هذه الكارثة، وهو أفضل من إخراجها في شهر رمضان.
- ما الحكم عند تلف شيء من محتويات المنزل بالخطأ، عند مباشرة الحوادث؟ وهل يضمن سواء كان مباحا أو غير ذلك؟

الجواب: ما تلف في المنازل والمحلات عند مباشرة الحوادث من غير قصد، وبسبب مقاومة الحادث فإنه لا ضمان فيه؛ لأن مباشرة الحادث ومقاومته فعل مأذون به، وما ترتب على المأذون فيه فهو غير مضمون[2].

- ما تلف في يد الوكيل بلا تعد منه ولا تفريط فإنه لا يضمنه؛ لأنه أمين.
- الضمان والغرامة على من تسبب بالقتل.

---

(١) رواه مسلم (١٠٤٤).
(٢) فتاوى اللجنة الدائمة (١٤ / ١٨٢).

كما أن كفارة القتل والدية تكون بقتل الخطأ المباشر، تكون في القتل بالتسبب، كما قال الحجاوي رحمه الله في الزاد: (كل من أتلف إنساناً بمباشرة أو سبب لزمته ديته)[١].

والقتل بالتسبب لا يوجب الضمان والكفارة إلا إذا كان صاحبه متعدياً أو مُفرِّطاً .

جاء في (الموسوعة الفقهية): (القاعدة العامة : أن المباشر ضامن وإن لم يتعد، والمتسبب لا يضمن إلا بالتعدي)[٢].

ومن قرارات مجمع الفقه الإسلامي: (الأصل أن المباشر ضامن ولو لم يكن متعدياً، وأما المتسبب فلا يضمن إلا إذا كان متعدياً أو مفرّطاً)[٣].

وقال السعدي رحمه الله: (والفرق بين التعدي والتفريط: أن التفريط ترك ما يجب من الحفظ، والتعدي: فعل ما لا يجوز من التصرفات، أو الاستعمالات)[٤].

- **تغريم المفرطين:**

المتعدي أو المفرط في عمله أو الغاش يضمن ما تلف؛ لأنه متلف لمال غيره .

وهناك قاعدة متفق عليها في الفقه الإسلامي وهي أن: المفرط ضامن، سواء كان مباشراً للإتلاف أو الإهلاك، أو متسبباً فيه.

قال ابن قدامة رحمه الله: (ويجب الضمان بالسبب، كما يجب بالمباشرة)[٥].

---

(١) زاد المستقنع (٢٢٢)
(٢) الموسوعة الفقهية الكويتية (٢٨/ ٢٨٠).
(٣) مجملة مجمع الفقه الإسلامي (٨١).
(٤) القواعد والأصول الجامعة للسعدي (٦٢).
(٥) المغني (٩/ ٥٦٥).

وإذا ثبت أن المقاول متهم بالتفريط والغش في البناء، وعدم مراعاة قواعد السلامة العامة، فهو متسبب في الموت بالإهمال أو التعدي، فيجوز رفع الدعوى عليه، وبيان حاله، وكشف سوء تصرفه حفظاً لأرواح الناس.

فهناك طرق وبيوت نفذها مقاولون وهي تفتقر إلى أدنى وسائل السلامة، أضف إلى ذلك رداءة الإسفلت المستخدم، أو المواد المستخدمة في البناء، ونحو ذلك، والواجب مستقبلا اختيار المقاول القوي الأمين.

خطواتٍ عمليةٍ إزاء هذه الكارثة

خلّفت هذه الكارثة العظيمة آثارا نفسية سلبية على كثير من الناس ممن شاهدوا الحدث، وخاضوا غماره، ومن تلك الآثار:

١- القلق.

٢- الاكتئاب.

٣- اضطرابات في النوم.

٤- عنف وكره للآخرين.

٥- النظرة التشاؤمية للمستقبل.

٦- اليأس.

٧- الخوف وعدم الاطمئنان.

٨- التسخط وعدم الرضا.

فيجب علينا القيام بالدور المطلوب في تخفيف مصابهم، ويمكن إجمال الوسائل العملية لتجاوز الكارثة في الخطوات التالية:

١- الاستعانة الربانية:

فلا بدّ لنا من اللجوء إلى الله، ندعوه أن يرحم الموتى، ويتقبلهم في الشهداء، وأن يشفي الجرحى، ويغيث الملهوفين، ويعوضَ المتضررين، ونسأله كذلك أن يعصم مدينة جدة مما يتهددها من مخاطر يتحدث عنها الإعلام كل حين.

٢- محاربة الفساد وإحياء ثقافة الحقوق:

فلا بد أن يرتفع صوتنا بالمطالب العادلة، مستثمرين في ذلك توجّه أعلى

سلطة في البلد إلى هذا المعنى، وتصريحها بضرورة تفعيله، ولابد على المحامين والقانونيين أن يعرفونا بما لنا وما علينا، وألا نتوانى عن رفع قضية تُجاه تقصير بَيِّنٍ نلاحظه، فإن الكتابة للمسؤولين، والحديث في وسائل الإعلام، ومنتديات الإنترنت يجعل للقضية حضورا، ويدفع دفعا إلى حلها، ويجعل المسؤول في حرج بالغ إن قصر أو فرط.

٣- تشكيل لجان ميدانية يكون عملها على النحو التالي:

١. حصر أسماء المتضررين وتحديد ما هي الاحتياجات، مع تسليمها للجهات التي تحسن توزيعها : كبطانيات، وأطعمة، وملابس، ولحف، وسجاد، وثلاجات، ومخدات، وفرش، وحليب أطفال، وحفائظ أطفال، وثياب رجالية ونسائية، وأدوية، ونحو ذلك.

٢. التذكير بالمفاهيم الضرورية التي تسلي المصاب في مصابه مثل:

- الربط بالقرآن الكريم تلاوة وتدبرا.
- فضيلة الصبر على البلاء، وما أعده الله للصابرين من أجر.
- الدنيا دار بلاء وابتلاء للمؤمنين.
- الرضا بالقدر.
- عظم أجر الاحتساب.
- التذكير بالجنة.
- الخلف والعوض من الله سبحانه.
- التفاؤل وبث روح الأمل.
- النظر في حال من هم أعظم بلاء.

٣. تفقد أحوال المصابين وإعانتهم، وتلمس حاجاتهم في كل ما يحتاجون إليه

ومواساتهم وتعزيتهم.

٤. زيارتهم والتحدث معهم، وتذكيرهم بأن ما أصابهم هو قدر من الله، فما أصابهم لم يكن ليخطئهم، وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم .

٥. عقد جلسات دعم نفسي لهم من متخصصين نفسيين، أو من أخوة تربويين لمن يحتاج منهم.

٦. عقد لقاءات عامة في مخيم أو استراحة.

٧. ذكر نماذج من المصابين، وقصص من سير الأنبياء والصالحين ، وحالهم مع الابتلاءات.

٨. رعاية من فقد أهله وذويه وكفالته.

٩. المسارعة في تطبيع أمورهم، بإشغال أوقاتهم بالأنشطة والبرامج النافعة.

١٠. إعداد حقيبة تحوي كتبا، وأشرطة مناسبة، ومسلية لهم في مصابهم.

١١. زيادة التواصل معهم، وتوطيد علاقاتهم برفقة صالحة.

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجع

١٢. الإعانة في البحث عن المفقودين.

١٣. استخراج الجثث؛ لتغسيلها، وتكفينها، والصلاة عليها ودفنها.

١٤. حماية الممتلكات.

١٥. نقل المصابين.

١٦. كسوة المحتاجين.

١٧. تهنئة الناجين.

١٨. تعريف الملتقطات وحفظها.

١٩. معالجة القلق وتسكين الفزع.

٢٠. التوبة والاستغفار.

٢١. الأذكار والأدعية المناسبة كدعاء المصيبة، ودعاء الاستصحاء وهو: « اللهم حوالينا ولا علينا»[١].

٢٢. جمع الإثباتات والأوراق الرسمية وتسليمها للجهات المختصة.

٢٣. تقديم الأهم فالمهم عند الإنقاذ، فلا ينقذ المال قبل العيال.

٢٤. مراجعة الحسابات الشرعية والدنيوية.

٢٥. تعلم الإسعافات الأولية ومعرفة كيفية الحماية والإنقاذ.

٢٦. لجان من الأقارب لتفقد أحوال من أصابتهم الكارثة من الأسرة.

٢٧. لجان في الحي لتفقد أحوال الجيران، وإحياء دور مراكز الأحياء.

٢٨. غرس معاني الإعانة في نفوس الشباب.

٢٩. الاستفادة من الحدث بالتخطيط المستقبلي، والتنظيم، وحسن الإدارة.

٣٠. حصر الأوبئة التي يمكن أن تنتج، وحسن الاستعداد لها : إذ إن ما خلفته مياه الأمطار من برك راكدة حول التجمعات السكانية بدون تصريف ستصبح موطناً خصباً لتكاثر البعوض، وانتشار الأوبئة والأمراض الوبائية، كالملاريا، والإسهالات، وحمى الضنك، والعياذ بالله.

٣١. أعمال المحسنين وهي كثيرة تدل على أن الأمة فيها خير كثير:

- تقديم شقق مفروشة مجانا.

---

(١) رواه البخاري (٩٢٣) ومسلم (٨٩٧) من حديث أنس رضي الله عنه.

- تقديم سيارات دفع رباعي للوصول إلى المناطق المنكوبة.
- ذبائح للإطعام ومطابخ لتقديم الوجبات.
- تقديم أدوية وملابس مجانا.
- أحدهم يُسخِّر نفسه لجمع المصاحف، والكتب الدينية من أنقاض المساجد والبيوت.

٣٢. الدعاء لهم بظهر الغيب بأن يرحم الله سبحانه موتاهم، ويشفي مرضاهم، ويداوي جرحاهم، ويجبر كسرهم، ويخلف لهم خيرا مما أُخذ منهم.

وعلى طلبة العلم مساهمات وأدوار، فمن ذلك :

- جمع أدلة الوحي التي فيها التثبيت والعزاء لأهل المصائب، ونشرها بينهم عبر الشبكة المعلوماتية.
- تحرير بعض المقالات والرسائل البليغة، التي يكون فيها تخفيف من المصيبة.
- نشر الأحكام الشرعية المتعلقة بالكوارث كأحكام اللقطة، والضمان، والعقود، بين المحتاجين لمعرفتها.
- جمع الاستفتاءات عن نوازل الكوارث المعاصرة، وعرضها على المشايخ وطلبة العلم لبيان حكمها، ثم السعي لنشرها.
- فتح مواضيع، وتكوين ورش علمية في المنتديات الشرعية المتميزة من أجل طرح وتباحث المسائل الفقهية المتعلقة بالكوارث.
- استثمار الأزمة بتذكير الناس بالله، وتوجيههم للاستغفار والدعاء والتضرع، والبعد عما يسخط الله.
- بحث ما يتعلق بالكارثة من مسائل وأحكام.

دور للمجتمع

على كل مسلم أن ينهض بواجبه الشرعي تجاه إخوانه المتضررين، ولا سيما الميسورون، وأصحاب التخصصات فهؤلاء عليهم أن يزكوا علمهم، ويبذلوا النصيحة لإخوانهم.

فالخطباء والدعاة بتخفيف المصاب، وإرشاد الناس إلى الأسباب الشرعية لتلك الكوارث، وكيفية تجاوز الأزمة.

والتجار بالتبرع بأموالهم.

وأصحاب المعدات بالمساعدة في انتشال السيارات، ورفع الأنقاض، وتنظيف الممرات.

والمهندسون والمقاولون ببذل النصح فيما يتعلق بالأبنية، وصلاحيتها، وموضع البناء.

والخبراء في تقييم الوضع، هل يحتمل الأمر رجوع الناس إلى بيوتهم، أو أن الوضع ما يزال خطيرا.

ومما يجب في هذه الحالة إعانة المتضررين وحصر احتياجاتهم ومساعدتهم.

وهذا الابتلاء الذي حصل جراء الكوارث والسيول فرصة لأخذ العبر، والتوبة إلى الله تعالى، فكل من كان بينه وبين أخيه شحناء فهذه فرصة لإظهار التواد، والتراحم، وفتح القلوب والبيوت، والبذل لكل من تضرر، حبا، وكرامة، وصلة لوجه الله تعالى؛ لعل الله أن يصلح ما بين المسلمين.

ولقد أثنى الله تبارك وتعالى على الأنصاربقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال :٧٤]، أي ءاووا المهاجرين رضي الله عنهم جميعاً.

والآن: فمَنْ حول بحيرة الصرف في جدة بحاجة ماسة إلى الإيواء، فطوبى لمن آوى، وأسكن، وفتح ما زاد من بيته وعقاره للمسلمين.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[التوبة: ٧١]

أي: يتناصرون ويتعاضدون، كما جاء في الحد يث أن النبي ﷺ قال: «**المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا**» وشبك ﷺ بين أصابعه(١).

وقال ﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**»(٢).

ولهذا سمى الله تعالى الأخ المؤمن نفسا لأخيه في غير موضع من القرآن، قال تعالى:﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾[آلعمران:١٦٤] (٣).

وأحق الناس بالإحسان إلى الناس، من أحسن الله إليه.

أحسن وأنت مُعان — يا أيّها الإنسان

إن الأيادي قروضٌ — وكما تدين تدان

فمفهوم هذا الجسد الواحد هو « من هدي القرآن للتي هي أقوم؛ لأن الرابطة التي يجب الاعتقاد أنها تربط بين أفراد المجتمع، والتي ينبغي أن يُنادى بالارتباط بها دون غيرها؛ إنما هي رابطة دين الإسلام؛ لأنه هو الذي يربط بين أفراد المجتمع حتى

---

(١) رواه البخاري (٢٤٤٦) ومسلم (٢٥٨٥).
(٢) رواه البخاري (٦٠١١) ومسلم (٢٥٨٦).
(٣) مجموع الفتاوى (٢/ ٣٨٨).

يصير بقوة تلك الرابطة جميع المجتمع الإسلامي كأنه جسد واحد فَرَبْطُ الإسلام لك بأخيك كربط يدك بمعصمك ورجلك بساقك [١].

ولهذا قال الله تعالى﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات:١٠] أي: الجميع إخوة في الدين [٢].

وانطلاقا من هذه القاعدة الربانية ، والإخوة الإيمانية، كان الواجب على المسلمين في هذه الكارثة أن يقوموا بحصر احتياجات إخوانهم المنكوبين، والمتضررين، ثم ما يلزم تجاههم.

فالمواساة، والترافق، وأعمال البر بين المؤمنين عامة أمر مندوب إليه، مرغوب فيه، ولكن تكون (المواساة واجبة عند الضرورة، ولا تستلزم المساواة)[٣].

والمواساة للمؤمن أنواع: مواساة بالمال، ومواساة بالجاه، ومواساة بالبدن والخدمة، ومواساة بالنصيحة والإرشاد، ومواساة بالدعاء والاستغفار لهم، ومواساة بالتوجع لهم على المصائب.

وتكون هذه المواساة على قدر الإيمان، فكلما ضعف الإيمان ضعفت المواساة، وكلما قوي قويت، وكان رسول الله ﷺ أعظم الناس مواساة لأصحابه بذلك كله، فلأتباعه من المواساة بحسب اتباعهم له.

وهذا ما أرشد إليه النبي ﷺ فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما نحن في سفر مع النبي ﷺ إذ جاء رجل على راحلة له قال: فجعل يصرف بصره يمينا وشمالا، فقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهْرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ**

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٤١-٤٢).
(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٧٥).
(٣) فتح الباري (١/ ٢٧١- ٢٧٤) عمدة القاري (٤/ ٢٨٠).

لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ. قال: فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل»(١).

قال النووي رحمه الله : في هذا الحديث : الحث على الصدقة، والجود، والمواساة، والإحسان إلى الرفقة والأصحاب، والاعتناء بمصالح الأصحاب، وأمر كبير القوم أصحابه بمواساة المحتاج.

وفيه: مواساة ابن السبيل، والصدقة عليه إذا كان محتاجا، وإن كان له راحلة وعليه ثياب، أو كان موسرا في وطنه، ولهذا يعطى من الزكاة في هذه الحال(٢).

فهذا هو الاستثمار الصالح للشقق والمباني في إنزال المحتاجين فيها مجانا، والقيام عليهم، وخدمتهم، وصنائع المعروف تقي مصارع السوء، وتفريج الكربات ثواب وفرج عظيم يوم القيامة.

الضيافة أيام الجوائح والكوارث

ففي أوقات الكوارث يحتاج المتضررون إلى الضيافة والإيواء، لاسيما بعد أن فقد بعضهم ماله وممتلكاته، فطوبى لمن آوى وأسكن ، وفتح ما زاد من بيته لإخوانه المتضررين.

وبعض الناس قد لا يملك فندقاً، أو غرفاً زائدة ليستضيف المتضررين، ولكن الله قد وسع عليه في المال، فمثل هذا يستطيع أن يستأجر للمحتاجين ويؤويهم.

وعن أبي شريح الكعبي أن رسول الله ﷺ قال:«**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتُهُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ، وَالضِّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ فَمَا بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ،**

(١) رواه مسلم (١٧٢٨).
(٢) شرح النووي على مسلم (١٢/ ٣٣).

وَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَثْوِيَ عِنْدَهُ حَتَّى يُحْرِجَهُ» [١].

«**جائزته يومٌ وليلة**» أي يتكلف له في اليوم الأول ما اتسع له من بر وإلطاف، وأما في اليوم الثاني والثالث فيقدم له ما كان بحضرته، ولا يزيد على عادته، وما كان بعد الثلاث فصدقة ومعروف ليس بواجب عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « **أيما ضيف نزل بقوم فأصبح الضيف محروما فله أن يأخذ بقدر قراه، ولا حرج عليه** »[٢].

وجاء في الموسوعة الفقهية الكويتية ما نصه: (وقد ذهب الحنفية والمالكية والشافعية إلى أن الضيافة سنة، ومدتها ثلاثة أيام، وهو رواية عن الإمام أحمد، والرواية الأخرى عن الإمام أحمد - وهي المذهب - أنها واجبة ، ومدتها يوم ليلة، والكمال ثلاثة أيام. وبهذا يقول الليث بن سعد.

ويرى المالكية وجوب الضيافة في حالة المجتاز الذي ليس عنده ما يبلغه ويخاف الهلاك .

والضيافة على أهل القرى والحضر، إلا ما جاء عن الإمام مالك، والإمام أحمد في رواية: أنه ليس على أهل الحضر ضيافة ، وقال سحنون : الضيافة على أهل القرى، وأما أهل الحضر فإن المسافر إذا قدم الحضر وجد نزلا - وهو الفندق - فيتأكد الندب إليها ، ولا يتعين على أهل الحضر تعينها على أهل القرى)[٣].

قال الإمام أحمد: (والضيافة على كل المسلمين، كل من نزل عليه ضيفٌ كان عليه أن يضيفه)[٤].

---

(١) رواه البخاري (٦١٣٥) ومسلم (٤٨).
(٢) رواه أحمد (٨٧٢٥) وصححه الألباني.
(٣) الموسوعة الفقهية الكويتية (٢٨/ ٢١٦-٢١٧).
(٤) المغني (١١/ ٩١).

فالجميع متفقون على أن الضيافة وقت الحاجة واجبة.

تحريم إحراج المضيف

ولكن لا يجوز للضيف أن يحرج مضيفه، فإذا انقضت حاجته واستطاع أن يعود إلى بيته فينبغي له أن يسرع بالرجوع.

فلا يجوز له أن يثقل عليه، أوأن يعرضه للضيق والحرج والتبرم، فيوقعه في الإثم، أو يضيق على أهله، وعليه أن يراعي أوقات خروج رب البيت من الدار فيخرج حين خروجه.

وينبغي ألا يكلفه ما لا يطيق، فلا يشترط عليه طعاماً أو سكناً معيناً، بل يأكل ما تيسر.

وألا يتعدى فيستضيف غيره إلا بإذن صاحب المنزل.

وينبغي على من لم يستطع استقبال الناس في بيته وقت الحاجة، أن يتلطف في الرد.

الدعاء لهم بظهر الغيب

بأن يرحم الله سبحانه موتاهم، ويشفي مرضاهم، ويداوي جرحاهم، ويجبر كسرهم، ويخلف لهم خيرا مما أُخذ منهم.

ولهذا حث النبي ﷺ أمته على القيام بهذا الدور العظيم بقوله: «**دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ، كُلَّمَا دَعَا لأَخِيهِ بِخَيْرٍ؛ قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلٍ**»[١].

وهذا له الأثر البالغ في علاج الخوف، والهلع الذي دخل نفوسهم وقلوبهم،

(١) رواه مسلم (٢٧٣٣) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

فبعضهم لأول مرة يرى ميتا أمامه، أو رآه وهو في حالة حرجة يحتاج إلى إعانة ولم يستطع إعانته، ونحو ذلك من المناظر، والمواقف التي أثارت الهلع، والذعر في نفوس الكثير.

وكذلك النبي ﷺ آخى بين المهاجرين والأنصار على المواساة، ومنها التوارث بعد الموت دون ذوي الأرحام، إلى حين وقعة بدر، فلما أنزل الله عز وجل: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ﴾ [الأنفال:٧٥] رد التوارث إلى الرحم دون عقد الأخوة [١].

ولهذا كان يقال: « للعادة سلطانٌ على كل شيء، وما استنبط الصواب بمثل المشاورة، ولا حُصنت النعم بمثل المواساة »[٢].

الجنود البواسل الذين كان لهم الأثر البارز في إنقاذ المحتجزين

تواصلت جهود وحدات الدفاع المدني في أعمال الإنقاذ على مدار الساعة، حيث تمكنت طائرات الدفاع المدني من إنقاذ ٣٠٠ شخص من المتضررين، في حين تمكنت أطقم الإنقاذ المائي الأرضي من إنقاذ ١٠٩٩ من المواطنين والمقيمين، بينهم عدد من النساء والأطفال، ممن احتجزتهم السيول والأمطار الغزيرة التي هطلت على محافظة جدة [٣].

التفاعل الالكتروني

وذلك من خلال التجمعات السلمية الواعية للتعاون مع الضحايا، وحفظ حقوقهم، ونقل أخبارهم، وأقرب شاهد على ذلك: (الحملة الشعبية للمساهمة

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٥٦).
(٢) عيون الأخبار (١/ ١١٧).
(٣) موقع الدفاع المدني.

في إنقاذ مدينة جدة) والتي ذكرت في ثوابتها أنها تلتزم بالعمل من خلال السبل القانونية المتاحة، والأطر النظامية، والتعاون مع كافة الأجهزة الحكومية والمختصّة، والتنسيق بين جميع الفرق التطوّعية للمساهمة في إنقاذ جدة، وتضم ما يقارب ٣٠ ألف مشترك.

الرجوع لأهل الاختصاص

هذه الأزمات والجوائح تظهر وحدة المجتمع وتضافره وتبادل خبراته، ولذا لا بد من الرجوع لأهل الخبرة في كيفية التعامل مع هذا النوع من الأزمات، إذ هم أهل الذكر في هذا الباب الذين يجب سؤالهم والاستفادة مما يوصون به من توجيهات احترازية أو علاجية.

فقه إدارة الأزمات

اعتماد منهجية علمية في التصدي للأزمة، هو السبيل للخروج من هذه الأزمة بأقل الخسائر والأضرار، وذلك يحتاج من المعنيين بالأزمة إلى حسن التخطيط، وجودة التنظيم مع دوام المراقبة والمتابعة.

ولذا فالواجب مراعاة الأمور التالية:

- المبادرة في طرح الحلول وتنفيذها.
- إحياء روح الفريق الواحد، والبعد عن الفردية.
- مواكبة العصر، واعتماد الوسائل العلمية المدروسة.
- الدقة في جمع البيانات والمعلومات.
- السكينة والطمأنينة، وعدم العجلة.
- تقوية الجانب الإنساني، وتحفيز الهمم ، وتفعيل الأفكار والآراء الإبداعية لدى المعنيين بمعالجة الأزمة.
- دوام الشورى بين المعنيين بمعالجة الأزمة، والبعد عن التفرد بالقرار.
- بذل الحلول المانعة من توسع الأزمة وتشعبها.
- وضع الحلول المستقبلية المانعة من تكرار الأزمة مرة ثانية.
- العناية التامة بكل ما له علاقة بالأزمة، من إحصاءات، ومعلومات، ووثائق، وتصريحات، ونحو ذلك.

برنامج مقترح لعلاج الأزمة:

- تجزئة العمل، وجعله على مراحل.

- توفير الاحتياجات المادية من أجهزة، ومعدات، و آليات، ووسائل اتصالات.
- العناية بالموارد البشرية المعنية بعلاج الأزمة، وتقديم أصحاب التخصصات على غيرهم، ووضع كل واحد منهم في المكان المناسب لقدراته ومهاراته.
- جدولة مراحل علاج الأزمة، وتحديد وقت معين لكل مهمة بدءاً وانتهاءً.

العناية بالجانب الإداري، وذلك من خلال:

- تشكيل لجنة رئيسية تنبثق عنها لجان فرعية لمعالجة بعض الجزئيات، لتتفرغ كل لجنة لأداء مهمتها الخاصة.
- تكليف بعض الأفراد بالعمل كحلقة وصل بين اللجان؛ لتنسيق الجهود.
- إعطاء كل عضو في اللجنة مسؤولية ومهمة محددة، وواضحة، ودقيقة.
- تأمين وسائل اتصالات فعالة بين جميع اللجان، واللجنة الرئيسية.
- منح الصلاحيات الكافية واللازمة لجميع رؤساء اللجان.
- تدعيم اللجان بالكوادر المؤهلة، لأداء المطلوب منها بدقة وعناية.
- السرعة في توفير وتأمين جميع المعلومات والبيانات اللازمة لعلاج الأزمة.
- دعم فريق العمل من خلال الحوافز والأجور المناسبة.

ولتحقيق الهدف المرجو يلزم متابعة إنجاز اللجان، وتقويم الأداء، والثناء على المحسن، والأخذ بيد المقصر والمتواني، مع الحرص على مراجعة الخطة دوما؛ ليصل الجميع إلى الهدف المنشود وهو علاج الأزمة.

ومن الأهمية بمكان محاولة حصر السلبيات المتوقع حدوثها في الحاضر والمستقبل، والعمل على دراستها، ووضع بدائل للحلول المناسبة لها، تفاديا لتكرر الأزمة.

كيفية التصرف قبل وبعد نزول الأمطار ومجئ السيول

- لا تسكن في بطون الأودية، أو على ضفافها حتى لا تداهمك السيول حينما تمتلئ الأودية بالمياه، واعرف مدى ارتفاع بيتك بالنسبة لمجاري المياه.
- استخدم مواد البناء المقاومة والمناسبة لطبيعة أمطار المنطقة.
- صوت الرعد والبرق ينذر بسقوط أمطار غزيرة.
- تصرف بسرعة لحماية نفسك وحماية ذويك، فقد لا يكون أمامك إلاعدة ثوان.
- لا تحاول المرور من خلال التيار المائي سيراً على الأقدام، إذا كان مستوى الماء فوق ركبتك.
- إذا كنت تقود سيارتك احذر السير في مكان لا تعرف عمق الماء فيه، فإذا تعطلت سيارتك أتركها فوراً واتجه إلى مكان عال؛ لأن الماء المندفع بسرعة قد يجرف السيارة ومن فيها، وقد حدثت وفيات عديدة بسبب محاولة تحريك سيارة معطلة.
- ابتعد عن قنوات المياه الطبيعية والأودية، فبعد انتهاء الأمطار تنحدر المياه من المرتفعات بسرعة عالية حاملة معها جذور الأشجار والطين والنفايات.
- يجب أن تكون هناك منطقة معروفة بالمنزل لجميع أفراد الأسرة توضع بها جميع الاحتياجات والأمتعة.
- احتفظ بمخزون من الأكل المطلوب، مما لا يحتاج إلى طبخ أو تبريد؛ لاحتمال انقطاع التيار الكهربائي.
- احتفظ بمعدات الإسعافات الأولية، أو أي مواد طبية أخرى يحتاجها أفراد

عائلتك.

- افصل الكهرباء عن الأجهزة أو المعدات التي لا يمكن تحريكها، ولكن لا تلمسها إذا كنت مبللا، أو واقفًا على أرض مبللة.
- لا تأكل الطعام الذي اختلط بمياه الفيضان خوفا من إصابتك بالأمراض والأوبئة.
- لا تتعرض للمعدات الكهربائية في المناطق المبللة، ويجب فحص الأدوات الكهربائية وتجفيفها.
- من أخطر المياه أثناء السيول المياه المتحركة، فيجب تجنب قيادة السيارات وسط المياه المتحركة بصرف النظر عن قوة وحجم السيارة.
- إذا وقفت السيارة في مكان به مياه، ومستوى المياه يزداد فعليك ترك السيارة والتوجه لأعلى مكان، وعدم محاولة تشغيل السيارة خاصة إذا تعطلت.
- ١٥ سم من المياه تصل لأسفل السيارة تسبب فقدانها، وقد تسبب تعطيل الماتور.
- ٣٠ سم من المياه يمكن أن تسبب عومان السيارة في المياه.
- ٦٠سم من المياه المتحركة قد تتسبب في حمل السيارات، وتسير بها مع اتجاه المياه [حتى السيارات المرتفعة].
- تجمع المياه في الشوارع يُكَوِّنُ بحيرات، وأحيانا يصعب تداركها بالنظر، فقد يدخل السائق في مياه عميقة وهو لا يدري.
- أعمدة توزيع الكهرباء على الأحياء قد يكون بها تيار كهربائي حي.
- أي شخص يتعرض لمياة السيول يجب عليه غسل بدنه وتطهيره بالمطهر والصابون.

- أحيانا تسبب السيول تسمما عن طريق المياه الموزعة بالمواسير، فينصح بغلي الماء على الأقل دقيقة بعد مرحلة الغليان. [قد يستمر الماء على النار لمدة ١٠ دقائق].
- أي شيء من أدوات المطبخ من الخشب ، والبلاستيك، لابد من التخلص منها، لعدم وجود طريقة سليمة لتطهيرها.
- الأشياء المصنوعة من الفخار، والصيني، والمعدن يمكن تطهيرها بالماء والصابون وغليها، أو استخدام الماء المخلوط بربع كلور لمدة ربع ساعة.
- من يسكن في بيت ويتوقع أن يتعرض لسيل، أو فيضان فإن كان لديه وقت فعليه أن يحتفظ بالأوراق المهمة، ونقل الأجهزة عامة لأعلى مكان في بيته، وفصل الكهرباء، والغاز، أو غلق المحابس الخاصة به.
- إذا وصل مستوى المياه لمستوى توصيلات الكهرباء، فلا تدخل في المياه.
- إذا أصيبت أجهزة كهربائية بالماء فلا تلمسها.
- إذا قرر الإنسان الفرار من البيت فعليه تجنب المياه المتحركة، وعليه أن يستخدم عصى أو نحوها للتأكد من سلامة، وصلابة الأرض.
- الثلاجة تحفظ برودة الطعام لمدة ٤ ساعات إذا ظلت مغلقة بعد فصل التيار الكهربائي، والفريزر يحفظه لمدة ٤٨ ساعة إذا كان ممتلئاً، ويحفظه لمدة ٢٤ ساعة إذا كان نصفه ممتلئاً.
- ويتجنب فتح الثلاجة أكثر من اللازم لتحتفظ بالبرودة؛ لأن كل مرة تفتح فيها تتسرب البرودة.
- الطعام المحتوى على لحم ، أو دجاج، أو جبن، أو سمك، أو مطبوخ سابقا، يظل لمدة أربع ساعات دون كهرباء ثم لا يؤكل بعد الأربع ساعات.

- من ضمن الوقاية لشبكة الصرف الداخلي استخدام التقنية الحديثة التي تمنع رد الماء من مواسير الصرف .
- تركيب صمام أمان في شبكة الصرف الصحي في المنازل بحيث يمنع هذا الصمام ارتداد مياه السيول من شبكة الصرف والمواسير الداخلية للمنازل.
- عند تعرض مواد البناء من العزل، أو البوية، لمياه السيول فإنها تسبب انتشار بعض الروائح المسببة لضرر صحي.
- مياه السيول قد تحمل بكتريا وفطريات، فإذا دخلت المنازل فقد يتشربها الأثاث أو الخشب.

الخاتمة

هذا غيض من فيض، وقطرة من بحر، فما حصل لإخواننا في جدة فاجعة عظيمة، ومع ذلك كله لا يجوز لأحد أن يقنط من رحمة الله، قال الله تعالى: ﴿ **وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ** ﴾ [الحجر:٥٦]، وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «**أكبر الكبائر الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله**»[١].

فهل هناك أرحم وأكرم من الله سبحانه وتعالى؟.

ولكن أين العمل؟.

وأين حفظ الأمانة؟.

وأين التوبة إلى الله؟.

وأين الإحسان؟.

نسأل الله أن يرحمنا ويجبرنا ويعافينا، وأن يتقبل موتانا في عباده الصالحين.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



---

(١) رواه الطبراني (٨٧٨٤) وصححه الهيثمي.

المحتويات